الكتاب للجميع
١٥٠
السفير

مجاناً مع السفير

مدونة ابو عبدو

الوجه الآخر

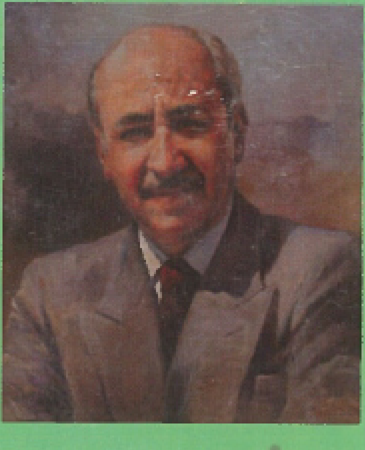

فؤاد التكرلي

المدى

5384

الكتاب للجميع

فؤاد التكرلي

الوجه الآخر

طبعة خاصة
توزّع مجاناً مع جريدة (السفير)

دار المدى للثقافة والنشر

٢٠١٤

مجاناً مع جريدة السفير
تصدر عن شركة السفير ش.م.ل

■
السفير
رئيس تحريرها: طلال سلمان
المدير العام: ياسر نعمة
المدير المسؤول: غاصب المختار

■
التحرير والإدارة: شارع منيمنة/الحمراء/بيروت
فاكس ٣٥٠٠٠٥ - ٧٤٣٦٠٢
ص.ب: ١١٣/٥٠١٥/الحمرا - بيروت ١١٠٣٢٠١٠
انترنت http://www.assafir. com
Coordinator@assafir. com

- تمت الطباعة في مطابع جريدة السفير
- تلفاكس ٧٤٣٦٠١/٢/٣/٤-١١-٩٦١+

الكتاب للجميع

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الإدارة والتحرير

فخري كريم

بيروت – الحمراء – شارع ليون – بناية منصور
الطابق الأول – تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ – ٧٥٢٦١٧
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية – دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦ – تلفون:
٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box : 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد – أبو نواس – محلة ١٠٢ – زقاق ١٣ – بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

(١)

خطر له حين مر أمام مقهى حسن عجمي، أنه سيعود للجلوس فيه عصر هذا اليوم. لم يكن فيه عصر هذا اليوم. لم يكن فيه غير بعض المسنّين، وكانت أرضه مغسولة نظيفة وَجوُّه صافياً. أحبّ منذ قدومه بغداد أن يتمتع بجلسة في الصباح يشرب فيها الشاي من الأباريق الأولى، لكن عقربي الساعة كانا بخيلين دائماً بهذه الدقائق القليلة.

كان شارع الرشيد مليئاً بحركة مستمرة والشمس البيضاء تملأه وتملأ نفس محمد جعفر. وعندما اجتاز محل المكوى الفني وهواءه الحار، أحس بنسيم خفيف يحمل إلى وجهه برودة الخريف. كانت الساعة الكبيرة على جانب الشارع تشير إلى السابعة والربع وكان الوقت متوفراً لمسيرة قصيرة إلى باب المعظم يتجنب بها الازدحام في موقف الحيدرخانة. كان هادئاً، يشعر بنظافة وجهه المحلوق وباستعداده النفسي للتمتّع بجمال هذا الصباح المشرق. رأى الفتاة الصغيرة الجميلة تأتي مع بعيد مع صاحبتها. كانت ترتدي ثوباً بنفسجياً ينسجم وبشرتها البيضاء الشاحبة، وكانت عيناها سوداوين طويلتين. سكتت حين صار قريباً منها وكانت تضغط بحزمة كتبها على أسفل ثديها الأيسر. وتبلل شفتيها بلسانها.

اعتاد أن يراها منذ أن افتتحت المدارس قبل شهر. ولم يكن يهتم بإدراك المعنى الذي يكمن وراء الحقيقة التي كان يحسّها بغموض في أنه يسعى إلى رؤيتها ما استطاع إلى ذلك. كانت الشمس مبهجة في ساحة الميدان وسيارات الأجرة تلمع تحتها. لم ير من البيوت البعيدة غير سلسلة مبهمة الملامح لا تعكر المزاج الصافي. ماذا قد يعني أنه

متزوج، لا يمكنه، بأية حال، أن يتصل بهذه الفتاة؟

إن الحياة تتفتح أحياناً، مثل هذه السماء اللؤلؤية، وتحتوي كل القيم التي يقرّها الإنسان وتلك التي لا يقرّها أيضاً. والمهم، قبل كل شيء، أن تكون لنا النفس العريضة العميقة التي لها قابلية مواجهة مثل هذه الحياة في منتصف الطريق. ولم يخطر له أن يسأل عن تملّكه لمثل هذه الحياة في منتصف الطريق. ولم يخطر له أن يسأل عن تملّكه لمثل هذه القابلية، وكان يثق بأنّ لديه طبيعة نبيلة يمكنها أن تحب البشر جميعاً؛ حتى طفله الذي لم يولد بعد. ولعلّه هو سبب هذا النبل. وملأت مخيّلته في لحظة صورة زوجته ببطنها المتكوّرة تحت الثوب الضيّق، فشعر باطمئنان وبأنّه يملك العالم. ولم يحاول التعرّف على مبعث كل هذا. لعله ابنه ولعله هواء الخريف البارد أو عينا الفتاة الطويلتان، ولعله شيء آخر يجهله.

وجد الازدحام شديداً حين وصل موقف باب المعظم، فانتحى زاوية ريثما تسنح فرصة للصعود. كانت الباصات الكبيرة الحمراء ترد فارغة ثم تمتلئ بسرعة وتمضي نافخة دخانها الحار في وجوه المنتظرين. وكانت أمامه فتاة وقفت على كثب منه، شعرها طويل أسود وحنايا جسمها مغرية، فتمنّى لو استطاع أن يرتقي الباص الذي ستصعد إليه، ولو استطاع أن يجلس قربها ويشم رائحتها الأنثوية. لم يتصل بزوجته منذ عشرين يوماً أو تزيد. أخبروه أن ذلك يسبب لها وللجنين أذى لا مبرر له، فأخذ نفسه بالابتعاد عنها رغم أنها لم تكن تعارض في أي عمل يريده منها. كم تبدو بسيطة رائقة النفس في بعض الأحيان. وهو يحبها لهذه الساعات الطيبة من حياتهما، حين يحس أنها تقدم إليه كيانها كله ليمتلكه. وكل ذلك دون سبب.

إلا أن تينك العينين الفائضتين بالحنان، كانتا تشعان – في بعض الأوقات القاسية – مقتاً مريعاً، إثر مخاصمات سخيفة بينهما لا يعلم كيف تبدأ ولماذا تستمر ومتى تنتهي. وكان ينهزم بعد كل موجة من

موجات الحقد هذه شاعراً بأنه قد يقتلها لو بقي وقتاً طويل.

أحسّ بلذع الشمس على ظهره ورقبته. لم يكن أمراً صحيحاً أن يسترجع هذه الساعات السوداء مع زوجته. إنه يحيي الحقد في قلبه ويزيد في نموه كلما عمل على نبش هذه الذكريات.

والحقد عدوّه منذ أدرك بعض المعاني في نفسه لقد جهد عظماء البشر ليحبّوا ما وسعهم الحب، ليحتووا العالم بين ثنايا أفئدتهم. كان شيئاً بعيد المنال أول الأمراء ثم أدركوه بعد نصب وتجارب مريرة، فكسبوا لأنفسهم إلى الأبد معنى من المعاني العميقة. ولكن أكانوا سعداء؟ أكانوا خليي البال؟

إن هذا المعنى لم يكن بالتأكيد راحة أو سعادة كما يمكن أن نعرفهما. ولعله حالة إنسانية لا تنال عن غير هذا السبيل الشائك. وإلا فلم نحقد بمثل هذه السهولة الشنيعة؟

كانت أفكاره تنثال في هذا الصباح المشمس وتتسلسل وتتصل على غير العادة، وكان يلتذ بمرورها الصامت في ذهنه. لاحظ أن الفتاة قد اختفت، ولكن الازدحام لم يخف. لا زال أمامه بعض الوقت ليعيد مجرى تأملاته. شعر بيد توضع على كتفه، فخطر له أن رفقة صديق ستحرمه دقائق العزلة الأخيرة. التفت بهدوء فوقع نظره على الشاب المجهول. صدمته فيه نظارتاه السوداوان الكبيرتان على عينيه واصفرار وجهه الشديد، ولم ير فيه أحد معارفه. بقي ينظر إليه صامتاً لحظات. كانت كتفاه مرتفعتين ضخمتين وبشرة وجهه نحاسية حائلة. شعر بارتباك وهو يسائل نفسه عما يمكن أن يريده منه. رأى ذراع الشاب تهوي إلى جانبه ثم سمعه يهمس بصوت منخفض خشن:

– آني مريض. وديني للمستشفى. ما أكدر أمشي. آني..

وهبط رأس الشاب قليلاً. كان شعره الأسود قصيراً مقصوصاً دون اعتناء. تكلم ببطء مرة أخرى:

- آني دا أموت. آني دا.. أموت.

سمع كلمات كالشهقة الأخيرة تصدر خافتة من فمه المتقلص. كان خافق القلب وأشعة الشمس تحرق صفحة وجهه اليسرى. لم يعد يسمع ضجة العالم حوله؛ كانا مخلوقين منفردين فوق أرض لا بشر عليها. سأله:

- شبيك؟

كأنه يجهض؛ ثم التفت حواليه فلم ير في الشارع سيارة أجرة، ولم يجد أحداً من الواقفين منتبهاً لما يجري لهما. كان الشاب متكئاً بظهره على العمود الحديدي وراءه وفمه مفتوحاً بعض الشيء. كان يحس شفقة مؤلمة عليه وكان مرتبكاً خجلاً. تراجع خطوة إلى الخلف دون أن ينتظر جوابه. أهو حيوان أم عاجز بصورة تبعث على الأسى؟ وماذا سيعمل؟ هل سينهزم منه؟ من هذه الحدود غير المألوفة لإنسانيته؟

أراد في لحظة وبإخلاص أن يقوم بعمل يمد به يد المساعدة لهذا المخلوق، أن يبدي له أنه معه في هذا العالم، وأنه ليس وحيداً، وتراجع خطوات أخرى إلى الوراء. بدأ انهيار مفاجئ على الشاب أفقده كل قوة، فأخذت ساقاه تنثنيان شيئاً فشيئاً وخيل إليه أنه يسمع تنفّسه الثقيل المتحشرج. كان خائفاً منه، من هذا الفشل المريع.

رأى نفسه يقفز بخفة إلى الشارع وينحشر متدافعاً مع جمع الصاعدين إلى الباص، ورآه - خلال زجاج النافذة - قاعداً على الأرض وركبتاه مرتفعتان قرب صدره وقد تدلّى رأسه بينهما. كتلة حزينة سوداء، وسارت السيارة.

ماذا يعني كلّ هذا؟ أهو ببساطة نقصان في تكوينه الخلقي؟ أم ماذا يعني؟

كان جالساً بانكماش على مقعد قريب من الباب ومناظر الشارع تمر أمام عينيه الجامدتين باستمرار. يجب أن يجد جواباً لما يعني كل

ذلك، وكان يحسّ اضطراباً في داخله كأنّه أصيب بصدمة عاطفية قبل لحظات. لبثت صورة الشاب المريض تحوم في ذهنه كالشيخ خلال مسير الباص. لقد تركه يموت بقسوة لم يصدقها، وما زال لا يصدقها. لعله لفظ أنفاسه الأخيرة الآن. ماذا كان يعني ذلك؟

إن طبيباً أو موظفاً صحياً ممتهناً كان بمقدوره أن ينقذه دون حاجة لشعور إنساني مرهف ولكل تلك التعقيدات الداخلية الأخرى. ولكن القضية لم تطرح على هذا الشكل، لأنه لم يكن طبيباً أم موظفاً صحياً. لقد وجّه إليه سؤال منفرد – هل بمستطاع إنسانيته أن تتصل بهذا الشاب المجهول، بضعفه وبألمه واحتضاره؟

ولم يرد أن يجيب، لم يحتمل التفكير في المعنى الذي أسبغه عليه عمله. كان ذلك مؤلماً، مؤلماً؛ خاصة لشخص مثله يعتقد أنه حساس بدرجة يستطيع معها أن يشارك في عوالم أناس آخرين. ولكن حساسيته أمر مؤكد، حتى أن الدكتور مراد أرجع إليها آلام معدته المستمرة. ما التفسير إذاً؟ أهو يشفق على سيد هاشم مثلاً، أو يدخل عالمه ويفهم آماله وأعماله، لأنه يريد أن يستدين منه؟

ولكن هذا غير ممكن. إنه لا يستطيع التفكير على هذا الشكل، لأن معناه تدمير لجميع قيمه الأخلاقية. انتبه على نفسه وهو يترك مقعده بصورة آلية وينزل من الباص سائراً باتجاه دائرته. لا، بل أن تفكيره يشير إلى شك مريع في وجود هذه القيم أصلاً. كانت معدته ثقيلة وطعم فمه مرّاً كريهاً. إن الالتهاب سيقضي عليه يوماً ما. لقد قتل في الحرب الأخيرة ملايين البشر، ولم يدرك الكثيرون ماذا يعني ذلك. أما بالنسبة إليه، فإن استنجاداً في غير محله يحدث له آلاماً طويلة في المعدة. وليس هناك غير سبب واحد هو الضعف الذي يستقر في صميم شخصيته وفي صميم بنيته. إنه لا يتصرف مثل أقوياء الشخصية قط. وكل الكتب التي يقرأها تثبت له ذلك، إلا إذا أصررنا عبثاً على أن كل هذه القوة في الشخصية إن هي إلا بلادة في الإحساس ذات مظهر خلاب. وما الفائدة؟

ارتقى درجات السلم ثم اخترق مجازاً مظلماً أوصله إلى باب فتحه بسكون ودخل الغرفة. لم يقم له المباشر من مقعده قرب الباب واكتفى بالنظر إليه نظرة جامدة طويلة. كان جو الغرفة كئيباً وجدرانها مختفية تحت صفوف الأضابير. هتف بصوت خشن:

– صباح الخير أبو خليل.

أزعجته رائحة كريهة ألفها في غرفتهم، رائحة العفونة والتبغ والهواء الفاسد. رفع أبو خليل وجهاً أسمر بارز الوجنتين عن مكتبه المحتشد بالأوراق:

– أهلاً. أهلاً وسهلاً بأبو جاسم.

ثم مسح أنفه بمنديل مكور:

– صبحك الله بالخير.

– الله بالخير.

ومد محمد جعفر يده فأخرج كتاباً من أحد أدراج مكتبه وضعه قريباً منه. ستتوالى الأوراق بعد قليل، ولكنه سيستطيع بلا شك أن يخلو إلى كتابه هذا بعض الوقت، ولعلّه سيتمكن من نسيان نفسه آنذاك. لم يكن مرتاحاً في جلسته وكان يتذوّق مرارة فمه حين سمع أبا خليل يتكلم:

– البارحة سأل عليك الملاحظ.

التفت نحوه ونظر إليه باستفهام:

– لويش؟؟

– يكول شايف مقال عتيك باسمك.

ثم مسح أنفه وأشعل سيجارة من عقب سيجارته المنتهية:

– كلت له يابه أبوّ جاسم شاعر قديم وكاتب معروف.

فأجابه محمد جعفر:

– إي. كاتب متقاعد.

فضحك أبو خليل:

– يبين الملاحظ معجب بالمقال.

فلم يجبه. شعر بفرح يمازجه الفخر ينبع من شق عميق في نفسه. ولكن، كل هذا سخف لا معنى له. لقد حدث له يوماً أن أدرك أنه لا يكتب إلا لأنه يكتب. ولم يكن يدري بالضبط لماذا يكتب، لماذا يجب أن نكتب على الإطلاق. وكانت هذه الفكرة هي مبدأ التلاشي عنده لقيم لم يكن يملك سواها يوماً من الأيام. وبقي جاهلاً بعد ذلك أكان انقطاعه عن الكتابة إرادياً أم أنه العجز الأبدي الذي يتسلّل بخفاء ويقضي على كل شيء.

دخل المباشر عبيد يعرج في سيره، فوضع عدداً من الأضابير والأوراق على مكتب أبي خليل:

– دزهن، على كولتهم، الملاحظ.

كان وجهه ذا سمرة محروقة وفي ظهره حدبة خفيفة. سأله أبو خليل:

– منو عنده؟

فعاد عبيد يخرج من الغرفة:

– ما يلتكي يمه أحد.

هتف أبو خليل:

– وين رايح؟ لك ما تتعلم الأصول عبيد؟

ثم نظر نحو محمد جعفر متسائلاً مستغرباً وهو ينفث الدخان من أنفه. وعاد يخاطب عبيد:

– بلكي أريد منك فدشي؟

فضحك عبيد ضحكة بلهاء وعدل من وضع سدارته المتربة:

– ليش ساكت، على كولتهم، يابو خليل؟

فنظر إليه أبو خليل متظاهراً بالغضب:

– جيب جاي.

ثم التفت إلى محمد جعفر:

– تشرب جاي أبو جاسم؟

فهز رأسه إيجاباً:

– سويها جايين.

فعاد عبيد يخرج من الغرفة وهو يتمايل في سيره ويبتسم:

– على راسي.

سأله محمد جعفر مرة عن سبب عرجه فأجابه بأنه أصيب أثناء حركات برزان حين كان جندياً. ثم على منه بعد ذلك أنه لم يصب برصاص العدو، ولكن بسقوط الجنود عليه حين صعودهم إلى إحدى السيارات. ضحك الجميع بعد انتهائه من حكايته. كان وجه عبيد آنذاك كثير الغضون أسمر محروقاً؛ وقد ابتسم هو الآخر بسرور بعد أن رأى ضحك الموظفين. شعر محمد جعفر، وهو يراقبه، بالمأساة المختفية وراء ملامح هذا الوجه الفارغ. وآلمه أن يرجع سبب ضحكه إلى ضحك بقية الموظفين. إن ذلك يعني أنه لا يثق بآرائه عن البشر؛ وإنه ينجرف بالأفكار التي تحيطه، مهما سخفت، لأنه لا يملك ما يقاومها به. ولكن، ماذا يمكن أن نعمل أمام إنسان غبي؟

جلب له الشاي. لذعه طعمه المر وشعر بقشعريرة خفيفة، فضغط على زر الجرس:

– هذا شلون جاي عبيد؟ هاك روح بدله.

أضاف أبو خليل وهو يرتشف الشاي من قدحه ويمسح أنفه:

– عبالك جوبجيني. شكره قليل.

ثم أشعل سيجارة بعد أن وضع الكفية في جيبه:

- هذا حميد الجايجي ما ينجرع من واحد ما ينطي فلوسه. مطيرجي. بايع ومخلص.

أثاره كلام أبي خليل:

- منو راح ياكل عليه فلوسه؟

وشعر بانقباض في صدره. لم يكن الموضوع أن «يأكل» فلوس حميد أم لا يستطيع ذلك، لأن المحاولة ستفشل بالتأكيد؛ غير أن ما آلمه وأحنقه في نفس الوقت؛ هو ألا يقدر على إيفاء حميد كل دينه في رأس الشهر. كان محتاجاً إلى كل فلس يصرفه على شرب الشاي، ومع ذلك بلغ حسابه ديناراً واحداً أعطى منه لحميد نصفاً وأجل النصف الآخر إلى الشهر التالي. وهكذا بدأ الشاي ينقلب إلى سائل مجهول اللون والطعم.

دخل عبيد محمر الوجه وهو يحمل استكان الشاي على إناء ممتلئ:

- سيد محمد؛ هوايه سريري، على كولتهم، هذا حميد. ما راضي يبدله. آني بيدي صببت ماي حار عليه، وشوية شكر خليت هماتين.

ووضع حمله على المكتب.

ماذا جرى له كي يدخل في معاملات مالية مع أمثال حميد؟ إن راتبه ضئيل حقاً، ولكن ضآلته لا تسمح بهوان النفس. لا شيء يسمح بهوان النفس. وشعر أن من الخير أن يفكر بتسديد دينه لحميد بدلاً من التفكير في قضايا لم يناقشه فيها أحد. وانتبه إلى أبي خليل يضع مجموعة من الأضابير على مكتبه وهو في طريقه إلى الباب. بقي ينظر إليها. هنا حياته، على هذه الكومة من الأوراق، رغم كل المحاولات لنكران ذلك. لو فصل، لأيما سبب، من وظيفته لمات جوعاً، لماتوا جوعاً. هو وزوجته وطفله الذي لم يولد. من يمكن أن يسرع حاملاً إليهم لقمة الخبز وهم في غرفتهم المنعزلة من ذلك المنزل العتيق الذي يسكنونه؟

إن أهله وكذا أهل زوجته لا يعلمون أين تقع الدار الخيالية التي يحدثهم عنها في بعض رسائله إليهم. لقد طلبوا منهما المجيء إلى بعقوبة، فحاول ذلك مراراً، إلا أن كل محاولاته كانت تكشف له وحدته بصورة مستمرة. لا أحد معه، ولا مخرج له. إنه لم يعتد على حياة القصور، ولكنه - من جهة أخرى - لم يعش هكذا من قبل في غرفة صغيرة مع إنسانة يواجهها ليل نهار ولا يستطيع الإخلاد لحظة إلى نفسه أو إلى كتبه القديمة. ولذلك صغرت نفسه مثلما صغر عالمه، وانحصر اهتمامه بالأصوات الغامضة التي يحدثها جارهم سيد هاشم، وبضوضاء المعارك في الطابق الأسفل، وبالجنين وحركاته وثيابه. ولكم حاول ألا يسيطر عليه هذا العالم الضيق المريع، دون أن يعلم السبب في هذه المحاولات. لم لا تتناسق نفسه، أفكاره وعواطفه، مع المجرى المظلم لهذا العالم التعيس؟ أهي حساسيته أيضاً؟ أهي قراءاته الماضية؟ أهو تركيبه الخلقي ومزاجه؟

قبل أيام، وبعد جهاد مع كبريائه، طلب من جارهم سيد هاشم أن يقرضه عشرين ديناراً. كان يعلم ما هي مهنة هذا السيد المزيف، وكان يعلم فحوى جوابه منذ البدء، إلا أنه أصيب، رغم علمه هذا، بطعنة في كرامته حين طلب سيد هاشم قطعاً من الذهب يرهنها لديه. ولم يعرف السبب الذي دعاه إلى الاعتقاد بأن مرابياً مثل سيد هاشم سيتنازل عن قواعده الصلبة في حالته هو بالذات.

كانت يداه تعملان في الأوراق على مكتبه دون كبير انتباه منه، وكانت في الاستكان بقية من السائل الأحمر ومن قطع الشاي السوداء. إن هذا النصب الصغير من الزجاج يرمز لحياته - دين غير مدفوع، عمل لم يتم. إنه لم يكمل مشروعاً مهماً في حياته. كل شيء يموت بين أصابعه فجأة، ولا تبقى له إلا الحسرة على إمكانية لا يدري أكان يملكها أم لا. ولكن الناس ينخدعون به أغلب الأوقات. تخدعهم مظاهر الإخلاص والبراءة في وجهه ويأخذونها على

أنها علائم قوة وإيمان. وهذا الشاب الذي استنجد به صباح اليوم أحد هؤلاء المخدوعين. وعادت إليه صورة كئيبة للشاب الأسمر وللنظارات السوداء الكبيرة والأكتاف الضخمة. شعر برغبة في التأمل فتوقف عن عمله وأخذ ينظر إلى أصابعه. إن الإيمان بالإنسانية يحمل في طياته إيماناً بوجود الشر وبوجود هذه الآلام الفظيعة التي ترهق البشر؛ وهذا الإيمان لا يمكن أن يكون منطلقاً لقوة إيجابية. إنه يضعف حامله، ينخر قلبه وفكره بهدوء ويتركه لا يعرف ما داؤه؛ ولم يصدق ما خطر له، ولذلك لا يمكن القول مسبقاً إنه كان يستطيع مساعدة الشاب المريض لإحساسه بضعفه وعجزه. لعله كان قادراً، ولكن النتيجة لم تكن محققة.

كان الضوء من الكوة الزجاجية في السقف ينساب مختلطاً بالغبار ويسقط على الأضابير المتراصة، وكان مكتب أبي خليل خالياً منه، وأصوات الشارع القريب مبهمة كأنها آتية من عالم آخر. ماذا سيعمل حين سيقبل عليه من عالم مجهول غامض طفل لم يرده ولم يفكر به يوماً؟ أين سيذهب بزوجته لتساعد على عملية الخلق هذه؟ من أين يأتي بكل هذه النقود؟

إن أهله وأهل زوجته أفقر من أن يستطيعوا إرسال فلس له، وليس بمقدور أحد منهم المجيء إلى بغداد. فأمه عجوز مريضة تعتقد أن في مفارقة بعقوبة مفارقة للحياة، وأختها - أم زوجته - مصابة بشلل كلي، وهي فوق هذا أصلب عناداً من أمه في اعتقادها بعلاقة لحياة ببعقوبة. أما والد زوجته فإنه بحاجة إلى النجدة أكثر من ابنته. إن داء القلب فيه قد يقضي عليه في أية لحظة. وهكذا ببساطة تغلق الأبواب. كل أقربائه مخلوقات عاجزة لا يعلم أحد كيف ولماذا تعيش، وأية معجزة ستحقق في يوم من الأيام.

دفع الباب وأطل عبيد الله برأسه:

- ماشي أشرب جاي سيد محمد.

فهز رأسه موافقاً. هل يذهب بها إليهم؟ إنها تلمح له بذلك، وهي تخشى أن تموت أثناء الولادة. ولكنها لا تصر على فكرتها هذه، لأنها تود من أعماق قلبها أن يعتني بها في أحد المستشفيات النظيفة الفخمة في بغداد. وهذه الرغبة تؤثر في نفسه كلما شعر بها. وهو يراها في القلق المتخافي في عينيها السوداوين كلما دار بينهما حديث عن الطفل والولادة، وعما يمكن أن يعملاه استعداداً لذلك. إنها تضع يديها باستسلام فوق بطنها المنتفخة وتنظر إليه كأنها تبحث في قضية خاسرة. ثم تتنهد بعد ذلك حين يورد لها فكرة عن الأسعار التي تستوفي في المستشفيات. وكان يحس، في هذه اللحظة بالذات من حديثهما، برغبتها الطبيعية الدفينة التي لا تجد تحقيقاً لها. ولكنه لم يقل لها يوماً إنه سيحاول جهده لإدخالها أحد المستشفيات، لأنه يعلم منذ البدء أن ذلك لن يقدم خطوة. ماذا يجب أن يعمل؟ ومنذ متى كان يجب أن يبدأ الإصلاح لكي يستطيع هو الآن أن يدخل زوجته المستشفى دون أن يدفع أجوراً باهظة؟

إن آباءه لم يعملوا شيئاً لأجله، ولذلك تضخم العبء على كتفه فسحقه. كان مسحوقاً قبل أن يولد. وماذا يعني، بعد كل هذا، أن الإنسان يملك أن يعمل كل شيء؟

أفزعه انفتاح الباب بسرعة وعنف ودخول أبي خليل كالعاصفة. وقف وسط الغرفة واضعاً السيجارة في فمه، ومن طرف أنفه تتدلى قطرة لامعة. هتف وهو يشير بذراعه ويفتح عينيه:

- أبو جاسم، القيامة قايمة بغرفة الملاحظ.

ابتسم محمد جعفر بسكون:

- خير انشالله؟

فأخرج ابو خليل منديله ومسح أنفه:

- الكون كله موجود بغرفة الملاحظ. ملكة الجمال العالمي كاعدة يم حضرة الأخ الملاحظ.

وسار إلى مكتبه فجلس إليه:

- أخـوك وكف صافن على زمانه. باوعت علي. أصابني خفقان. شفت أحسن طريقة أتراجع بانتظام. وبالفعل نفذت الخطة. رأيك بجبن وشربت زبيب وصمون على هالخبرية الممتازة؟

فهز رأسه دون كلام. نادى أبو خليل الفراش عبيد وأعطاه نقوداً لشراء هذه الوجبة التي لا اسم لها من الأكل. من يدري، لعل أبا خليل، في نهاية المعركة، هو الفائز، هو الفاهم لحقيقة هذه الحياة. وسحقاً بعد هذا لكل الأحاسيس الإنسانية ولكل الإمكانيات التي لم تحقق.

قال أبو خليل وهو يستخرج رزمة من أغلفة الرسائل:

- ماكو شغل زايد اليوم. خلي نشتغل بهوايتنا الخاصة.

ثم بـدأ بوضع الطوابع الملصقة على الظروف في إنـاء مليء بالماء. إنه يسميها هوايته الخاصة، وهو حين يتكلم عنها يظهر نفسه بمظهر من يهوى جمع الطوابع. وكل ما فيها هو تمزيق الطوابع من الرسائل وتنظيفها ثم بيعها في اليوم التالي لجمع مصرف جلسة شراب متواضعة.

كانت الأوراق على مكتب محمد جعفر قليلة، وكان استكان الشاي منزوياً في ركن من المنضدة. خطر له أنه مكتئب وأن فرحة الصباح لم تدم طويلاً. كانت ضوضاء الشارع خافتة وحزمة الشمس منكمشة على تراب الأضابير العالية. لم يشعر بميل للاشتغال أو للقراءة. قال أبو خليل:

- هذا المطي عبيد راح يتأخر، وداعيك الجوع دايسه.

ومسح أنفه ثم استمر في تمزيق أغلفة الرسائل.

(٢)

كان جو المقهى داخناً مليئاً بضجة لا تخمد، وأضوية النيون الحليبية تضفي صفرة قبيحة على أوجه الجالسين السمراء. وكان يحس بخشب التخت يقضم عظام حوضه. مرت عليه ساعة طويلة في جلسته هذه يراقب الشارع والمارة، والملل والقلق يفترسانه على مهل منهما. مد يده إلى جيبه الأيمن وتحسس الكيس الورقي والأساور ومحابس الذهب التي يحتويها، فشعر بانزعاج خفي بداخله. هذا هو كل ما يملكان، كل ما يمكن أن يثير فضول الناس فيهما. لقد قدم بعضه هدايا لزوجته، هداياه البائسة، والبعض الآخر جاءها من أهلها الذين لا يملكون شيئاً. ولقد استرجعه منها بأسرع مما توقع.

مر أمامه صانع المقهى اسماعيل وهو ينادي بحيوية زائدة:

– ماي، ماي.

كان قصيراً نحيلاً، يلبس ثياباً زرقاء ويضع يشماغاً فوق رأسه ولحيته بيضاء قصيرة. ناداه:

– أبو حقي. قد كلاص ماي.

فأسرع اسماعيل إلى صب الماء من قربة غريبة الشكل وقدم الكأس إلى محمد جعفر ثم مسح يده بثيابه:

– آني ممنون لأبو جاسم.

– أشكرك.

وأعاد إليه الكأس سائلاً:

– ما شفت سيد هاشم، أبو حقي؟؟

فتأمل اسماعيل الكأس برهة ثم سكب بقية الماء على أرض المقهى:

– سيد هاشم يحضر ساعة بالتسعة.

ثم مضى. كانت الساعة في المقهى تشير إلى ما قبيل السابعة بعد دقائق. لا فائدة من الانتظار في هذا الجو المرهق. تحسس الكيس الورقي مرة أخرى ثم قام فخرج بعد أن دفع حسابه.

كان الهواء بارداً في الشارع فلف السترة على جسمه ووضع يديه في جيوبه. لم يفارقه ألم المعدة منذ العصر، ولا يزال يزيد في ضيق عالمه عليه. نزل بضع درجات متعكرة ثم شعر بالأرض تنحدر تحت قدميه. واجهته ظلمة الأزقة فجأة. إن منزلهم العجوز يختبئ في إحدى هذه الملتويات، حيث يكمن هو وزوجته في زاوية عالية موحشة منه، لا يريان فيها غير الجدران الصامتة ولا يسمعان غير الأصداء. إن النزلاء يتعشون الآن، كأنهم على موعد مع بعضهم. تبدأ أم سليم بتحضير أدوات الطبخ فيسرع الأكراد الذين يسكنون الطابق الأرضي إلى إشعال مواقدهم.

كانت جدران الزقاق عالية متقاربة، لا تترك من السماء إلا شقاً مضيئاً أزرق. ولم يكن محمد جعفر يميز بعينيه برك المياه الآسنة ولا الحفر والسواقي، ولكنه كان يتلافاها بغريزة اكتسبتها قدماه. ماذا حاول أن يصنع أصحاب هذه الدور حين بنائها؟ أكانوا يحبون بعضهم بعضاً فجعلوا حيطان بيوتهم تكاد تتعانق؟

وكانت رائحة الدهن المحروق والبصل تملأ أنفه. إنهم يتعشون في كل مكان. لا يمكنهم أن ينسوا المحافظة على استمرار الحياة في أجسامهم. وكان يسمع أصواتاً مرحة من بعض المنازل وعراكاً أو أغاني عربية من الأخرى. أهم أشقياء حقاً، أم متعبون تعب الحمير فقط؟

وكان يحس مللاً مريعاً من كل شيء. ملل لا يشعر به الناس الذين يعايشهم. إنه لا يرى على وجوههم إشارات هذا الداء الوبيل.

كلهم مثل ذلك الكهل الذي اعتاد أن يراه، والذي رآه مساء اليوم أيضاً. يجلس أمامه متطلعاً إلى خارج المقهى بنظرات ثابتة لا يمكن تفسيرها. لم يكن على وجهه أي انطباع ولم تكن في عينيه أية عاطفة. إنه عاجز عن الشعور بالملل والقلق اللذين يأكلانه هو. إنه لا يعيش، إلا أنه لم يكن شقياً. مثل قطتهم حين تتكوم على نفسها ساعة أو بعض ساعة؛ لا تعمل شيئاً ونظراتها ضائعة في فضاء غير محدد.

سمع صوت أم سليم الدافئ قبل أن يدخل الدار. رآها تقف وسط الحوش تحدث امرأة أخرى لم يميزها. سلم عليها:

– مساء الخير أم سليم.

فالتفتت إليه:

– مساء النور عيني أبو غايب.

كانت طويلة ممتلئة الجسم، ذات أكتاف عريضة وجدائل متينة من الشعر الأسود تظهر من تحت فوطتها الرقيقة. ولم تكن تجاوز الخامسة والثلاثين، لكن عدد أطفالها لم يقل عن الستة رغم الموت الذي يفاجئهم أغلب الأحيان.

سمعها تعود إلى إكمال حديثها. لم يكن صوتها مألوفاً في نساء يعشن مثل حياتها. كان صافياً، متوثباً بأنوثة تخاطب كل الرجال. وكان يحنق كلما انتبه على نفسه وهو يصغي بلذة إلى صوتها. تعثر بدرجات السلم الأولى فسمع أم سليم تهتف:

– دير بالك عيني أبو غايب. تره ما صلحناها للدرجات بعد.

فلم يجب وتمسك بالحائط ثم أخذ يصعد السلم بحذر.

بقي واقفاً في الفسحة التي تلي السلم المتهاوي. كانت السماء صافية ملساء وغرفة سيد هاشم مظلمة. تنفس بعمق وهو يراقب بعض النجوم التي ينبض نورها برتابة. ماذا يجري هناك، في هذه الأكوان الأزلية؟

لقد خلا قلبه من الإيمان، لكن السماء القاصية لبثت تثير كوامنه وأحلامه؛ صفاؤها اللامتناهي ولونها الشفاف الأثيري. ولكم تبدو آلامه واهتماماته بغير معنى حين يخطر له الخلود الذي يلف هذه الأشياء العظيمة البعيدة.

كان الضوء في غرفتهم يصبغ الحيطان المتآكلة بحمرة قاتمة، وكانت زوجته جالسة في السرير وقد رفعت اللحاف إلى وسطها. سألها:

– خير انشالله سعدية؟

وانتبه إلى سليمة ابنة أم سليم وهي تقف إذ رأته داخلاً. كانت صفراء الوجه صفرة شديدة وعيناها واسعتين داكنتين. قال:

– ها سليمة، إنت هنا؟

وكانت في الخامسة عشرة من عمرها، لطيفة ساكنة حالمة النظرات، يخفي جسدها أنوثة تتفتح يوماً بعد يوم. أجابته زوجته:

– أي. آتي صحت عليها. شوية حسيت مالي خلك وصحت عليها تكعد يمي.

– شبيج؟ دتحسين بشي؟ أصيح أم سليم؟ لو إذا...

فقاطعته:

– لا. لا عيني محمد. ماكوشي. شوية تعبانة جنت بس. وين رايحة سليمة؟

وكانت هذه متوجهة نحو الباب، نحيلة ذات خصل من الشعر قصيرة:

– راح أنزل أتعشى.

ثم فتحت الباب واختفت. سألته زوجته:

– شفت سيد هاشم؟

فأجابها وهو يقترب منها وينزع سترته:

– لا والله. يجي ساعة تسعة بكهوة حسن عجمي. شكو عدنا للعشا؟

كان وجهها مدوراً شاحباً يحيطه شعر أسود كث يرتمي على كتفيها، وكانت بطنها عالية تحت اللحاف الأزرق. قالت:

– أكو شوية شوربة عدس وسبيناغ. إذا تريد احميها إنت عيني محمد. آني ما أكدر أكوم.

فهمهم:

– زين. زين.

وسمعها، حين توجه إلى المنضدة التي صنعوا منها مطبخاً:

– تدري، هاي سليمة هواية تونس. حجت لي اليوم شلون تاكل الصابون.

أخبرتهم أمها بذلك في الأيام الأولى من مجيئهم، أثناء كلامها عن المصائب التي تنزل بها بين زمن وزمن. استمرت زوجته:

– تكول ما أدري لويش آكله. هو مو طيب.

ثم ضحكت ضحكة قصيرة:

– وتكول كل ما أشوف صابونة، ما أح على نفسي إلا آني دا آكلها. صدك يعني هذا؟ أمها هواية تبسطها على مود الصابون. ما راح تحميها للشوربة؟ أكوم آني؟

كان ضجراً بعض الشيء:

– لا ع. ماكو حاجة. الدنيا مو كلش باردة.

وشعر بطعم الحساء البارد في فمه.

هو أيضاً يأكل بعد مغيب الشمس، ويحافظ بانتظام وإصرار على جريان الدم في عروقه. ولكنه أيضاً، ولغير سبب واضح، يعتبر نفسه يقوم بعمل آخر لا يشابه أعمال كل هؤلاء الناس، أم سليم وجيرانها الأكراد وسيد هاشم وبقية البشر. إنه لا يعيش حياته كما

يفعلون هم. وتذكر الشاب ذا النظارات السوداء الكبيرة. إلا أن البراهين تعوزه ليثبت ذلك. وما حاجتنا للبراهين؟

شعر أنه متعب، غير قادر على الإتيان بأعمال عظيمة. لقد كان هكذا منذ أحس بنفسه وبدأ يراقبها. يكتفي بهذه الفكرة السقيمة عن نفسه ويترك للأعمال وللآخرين أن يقرروا ما يشاؤون بشأنه.

سمع زوجته:

- يعني هذا سيد هاشم راح ينطينا العشين دينار؟

فسيطر عليه ضيق بسيط وهو يفكر في جواب لسؤال زوجته. قال:

- لويش لا؟ شنو، قابل دنستجدي من عنده؟

لم يكن يرى وجهها، لكنه أحس بالانكسار في صوتها:

- لا ع. دا أكول. يعني أخاف..

وقطعت كلامها. كان هو قد كف عن تناول طعامه حين بدأت حديثها، وبقي يتطلع إلى الأشياء الموضوعة على المائدة دون أن يراها. هل في تكوين عقله عيب يمنعه من فهم الأمور على حقيقتها؟

لقد ظن أن الاستدانة من سيد هاشم لن تجعله في مركز ضعيف، ما دام يقدم إليه فائضاً وذهباً يرهنه. كان الاسبيناغ مغطى بطبقة خفيفة بيضاء من الدهن الجامد وبعض قطع من اللحم تنتشر عليه. إلا أنه يجب أن يعترف بأنه شعر - شعر فقط - بأن مشروعه هذا لا يخلو من مهانة. ويبدو أن زوجته تتكلم بلسان هذا الشعور المرير الظالم. وضع الملعقة في صحن الشوربة واتكأ على الكرسي بظهره. كان يسمع تنفس زوجته خلفه. إنهما يخسران مرتين في هذه الصفقة. يخسران نقوداً ويخسران جهداً عاطفياً. كان هو أيضاً يخسر مرتين في قضايا رئيسية مرت عليه. فلقد بذل جهده، قبل سنوات، كي يجتاز امتحان البكالوريا الإعدادي، وكان أهله جميعا يثقون بأنه سينجح

بسهولة لكنه خسر مرتين، خسر جهده وخسر عواطفه ومشاعره الطيبة التي أفسدت عليه؛ ورسب. أحزنه بعد ذلك أن أهله ومعارفه لم يدركوا مطلقاً المعنى الذي يكمن وراء فشله. المعنى الذي لم يستطع تفسيره لنفسه بوضوح، بل عاشه خلال سنوات طوال تلت.

سمع صراخاً وضجة مشاجرة تصل أذنيه من الطابق الأسفل.

قالت زوجته:

– هم بدوا.

فالتفت إليها:

– هذولة من يشبعون يتخبلون.

فابتسمت زوجته بهدوء. كانت على وجهها انطباعة حلم عميق وهي تضع يديها فوق اللحاف الذي يغطي بطنها. سألها برفق:

– شلونج هسه؟

فهزت رأسها:

– زينة.

قام فليس سترته ثم تحسس الكيس الورقي:

– آني راح أروح للكهوة. أرجع بعد فد ساعة. تردين شي؟

– لا كل شيء ما أريد. بس كلها لأم سليم بلكي تصعد يمي. آني ما أكدر أنزل اليوم. أشو ما أكلت شي؟ شبعان.

فلم يجب واتجه نحو الباب. سمعها:

– دير بالك عيني محمد إلى الذهب.

كان صوتها مرتجفاً بعض الشيء، ورأى في عينيها السوداوين قلقاً طافحاً. هز رأسه دون كلام وخرج.

كان متألماً وهو ينزل السلم المتهدم؛ وكان يحس أن هذا الألم لو ازداد لأمكن أن يقتله دون كبير مقاومة. إنها تخشى على ذهبها، لأنه

كل ما تملك. ولكنها تعلم أنهما في موقف منهار، ولذلك استسلمت. وكان هذا فوق طاقته، أن يشعر أنها ضحية دون سبب اتهام. كان الحوش مضاء بلمبة صغيرة علقت فوق باب أم سليم. سمع الضجة والصراخ يرتفعان من داخل غرفة الأكراد. رأى سليمة تغسل يديها بهدوء في الظلام، فكلمها:

– سليمة؟

فالتفتت إليه. رأى عينيها اللامعتين وخدها الأملس. بقيت تنظر إليه، فاستمر:

– تكدرين تصعدين يم سعدية؟ أنت وأمج؟

فهزت رأسها بالإيجاب وعادت إلى غسل يديها. لم يجد ما يقوله لها فمضى خارجاً.

كان الزقاق الضيق ساكناً، تضيء بعض منعطفاته مصابيح كهربائية حمراء. خف ألم معدته قليلاً بعد اللقيمات التي أكلها، لكن الضيق في صدره لم يفارقه. أيمكن أن يكون مسؤولاً عن استسلام زوجته المؤلم؟

إن هذه الفكرة هي التي تكمن وراء ألمه. وتبادرت إلى ذهنه صورتها وهي في جلستها الأخيرة على الجربايه الذهبية ذات الأعمدة اللامعة. هل يمكن أن يتخذ الاستسلام شكلاً آخر؟

إن شفقته الشديدة عليها يخالطها اشتهاء عنيف لجسدها، إلا أن هذا الاشتهاء لا يخفف من تأثير الشفقة عليه. وهو يحس بعطفه يؤلم قلبه ولكن، ما السبيل للخروج من هذه الدائرة المتصلة بإحكام؟

كان مقهى حسن عجمي يشع بأضواء النيون الموضوعة في كل مكان، وكان الجو لا يزال مليئاً بالدخان. لم ير سيد هاشم بين الجالسين القليلين، ولمح الساعة تشير إلى الثامنة والربع قبل أن ينتحي زاوية لا يجلس فيها أحد. كان دفء المقهى بديعاً، وكان مرتاحاً

رغم تخت الخشب البارد الذي يقعد عليه. طلب شاياً خفيفاً وخطر له أن ذلك قد يساعده على السهر ليقرأ بعض الشيء. لم يفتر حبة للقراءة مع هذه الظروف السيئة التي تحيطه، وكان ذلك باعثاً على ثقة جزئية في نفسه. كان الوقت متوفراً لديه في بعقوبة بشكل لم يتوقعه أن زواجه قد ينقص من هذه الوفرة. إلا أن الحقيقة قد تختفي آخر الأمر في أبعد الاحتمالات. فها هو لم يمسك كتابه منذ ثلاثة أيام؛ وقد مر شهران على شرائه واحداً جديداً. ومن يعلم، فلعله يعطي القراءة أهمية لا تستحقها. إن زوجته لاتفتأ تذكره بأنهما لا يجنيان شيئاً من وراء قراءاته؛ وهي لذلك تحثه على إيجاد عمل له بعد الدوام الرسمي. ولقد رفض اقتراحها، إلا أنه بدأ يفكر في فائدة القراءة له. إنها لا تزيد إلا وساوسه وأحلامه وشعوره بالفشل. ورغم أنها تفجر في نفسه أحاسيس فذة بحيوات الآخرين، إلا أنها لا تفعل ذلك إلا لتكشف له عن الموت وعن العبث. وهو بعد هذا لم يجد يوماً ما ذلك إلا لتكشف له عن الموت وعن العبث. وهو بعد هذا لم يجد يوماً ما حلاً لإحدى مشاكله فيها، مشاكله المادية خاصة. وإن كان يبدو أمراً سخيفاً أن نقرن الكتب وقراءتها بقضية جمع المال. إن هذا كمن يعطي سيد هاشم كتاباً لبرغسون ليقرأه ويبدي فيه رأياً صائباً.

أحس بنفسه يميل إلى الابتسام لهذه الفكرة. في الحقيقة، ماذا يعني العقل الأدبي والخلق الأدبي والمجهود الأدبي كله في نظر شخص مثل سيد هاشم؟

إن جوابه قد يكون تافهاً، ولكنه سيكون مخلصاً فيه. أليس في هذا الموقف طرح لقضية الأدب بأجمعها؟ فمن يعلم من هو المصيب من اثنين – شخص يفني حياته في سبيل تحقيق غاية أدبية قد لا ينالها في النهاية، وآخر تفنى حياته وهو يجهل باطمئنان أن هناك ما يسمى أدباً؟

كان استكان الشاي قربه فارغاً على المنضدة الصغيرة المحروقة

بأعقاب السجاير، وكان اسماعيل يسير ببطء بين قنفات المقهى منادياً عن مائه. لم ير لسيد هاشم أثراً، وليس هناك من يستطيع أن يؤكد حضوره هذه الليلة، لأن الشيء الوحيد الذي يضمن ذلك هو استحقاق كمبيالة أو فائضها. شعر بنفسه يسخر بمرارة لهذه الفكرة. أمعنى هذا أن سيد هاشم مطمئن إلى تنظيم حياته وفق هذا القانون الذي يسترشد به؟ وإنه لا يشعر - لا يمكن أن يشعر - بأي قلق من أن تكون وجهة نظره خاطئة من الأساس؟

كان نحيلاً ككومة عظام، يرتدي ملابس عتيقة مهلهلة ويضع سدارة مغبرة سوداء فوق رأسه. رآه يدخل المقهى أثناء ما كان يفكر به. أسرع إليه اسماعيل وأمسك بذراعه هامساً في أذنه كلاماً ما ثم قاده إلى الجهة التي يجلس فيها محمد جعفر. كان ذلك آخر الأمر سيد هاشم. وكان يمسك بعصا ونظره متجه نحو الأرض بصورة مائلة. هتف حين اقترب من محمد جعفر بصوت أخن:

- السلام عليكم.

لم تكن لحيته المليئة بالشيب محلوقة. أمسك هو بعصاه وأجلسه قربه على القنفة:

- وعليكم السلام. تفضل سيد هاشم، تفضل. الله بالخبير.

فرفع يده نحو رأسه مجيباً:

- مساك الله بالخير سيد محمد. شلونك؟

- الحمد لله. أنت شلونك سيد؟

- أدعي لك بالخير، الله يديمك.

كانت عيناه مدفونتين، لا يبين منهما إلا خطان أسودان، ووجنتاه بارزتين يغطيهما الشعر الأشهب. كيف يمكن أن يعامل مخلوقاً كهذا؟

اقترب منهما اسماعيل:

- مساك الله بالخير سيد. ماي؟

فرفع يده دون نظره:

- الله بالخير أبو حقي. أي والله فد كلاص ماي الله يخليك.

كان يتكلم من أنفه العظمي. قال له اسماعيل بعد أن شرب كأسه:

- هنيئاً سيد هاشم.

فأجابه وهو يمسح فمه بكفه:

- هناكم الله مولانا. فد جاي بالله أبو حقي. سنكين الله يرحم والديك.

- ممنون آني للسيد.

ومضى. كيف يمكن أن يبدأ في معاملة مخلوق كهذا؟ وكان سيد هاشم يجلس وظهره منحن ويداه على قمة عصاته. قال له محمد جعفر:

- دا انتظرك صار لي ساعتين سيد هاشم.

فأجابه دون أن يتحرك:

- خير إنشالله. جنت دا أصلي صلاة العشا. إي بالله، صلاة العشا. بعد شلونك سيد محمد؟ ما دنشوفكم هالأيام؟ حنا جيران.

- أشكرك. مشغول شوية.

ماذا يبقى لهذا الإنسان لو انتزعت منه كل أمواله، كل آلاف الدنانير وحجج الدور والكمبيالات التي يملكها؟ سيبقى له غذاؤه الذي لا يصرف عليه قط وستبقى له ملابسه التي يأخذها من أقربائه وأصدقائه؛ ولكنه لا بد أن يموت. لا يمكنه أن يحيا دون أمواله رغم أنها لا تدخل في حياته. لقد فضل أن يفقد بصره علي أن يصرف فائض سنة على مداواة عينيه. ولكن، أفي هذا معنى ما؟

كان يمتص الشاي بصوت عال وحنجرته ترتفع وتنخفض. رأى باقة ثوبه قذرة منكمشة على نفسها.

سأله:

– شايل عشرين دينار سيد؟

فانقطع عن شرب الشاي حالاً، ثم كرعه دفعة واحدة ووضع الاستكان بحذر قربه على حصير القنفة؟

– لا والله. خير إن شاء الله. ماكو هالأيام فلوس.

فشعر محمد جعفر بخوف مفاجئ يتملكه لحظة:

– مو آني جايبلك الذهب سيد.

فحرك هذا رأسه من اليمين إلى اليسار:

– والله ماكو فلوس سيد محمد. خير إنشاء الله؟

ثم أردف بعد هنيهة:

– شايله وياك؟

ما كان أسخف قلقه! أخرج كيس الورق من جيبه ووضعه فوق كف السيد:

– أنت موكلت لي.

فتشبث سيد هاشم بالكيس ثم فتحه برفق وراح يخرج الذهب قطعة قطعة، فيرفعها إلى عينيه ويتأملها لحظات ثم يعيدها إلى مكانها. كانت أصابعه رفيعة عظيمة وأظافره سوداء طويلة، وكان الذهب شيئاً غريباً بين أنامله. ذهب سعدية، تلك الضحية التي اختارت مصيرها.

قال سيد هاشم بعد أن أنهى فحصه وبقي ممسكاً بالكيس:

– شكد تريد؟

– عشرين دينار.

– خير إنشالله. ماكو فلوس هالأيام سيد محمد. هواية عشرين دينار على جم قطعة ذهب مو صافي.

– شنو مو صافي؟

ولكنه أدرك حالاً أي باب سخيف فتحه بهذا السؤال، فأردف:

- أني محتاج عشرين دينار سيد هاشم. عندي ولادة ولازم أحضر هالمبلغ.

فهز السيد رأسه مرات وقال مهتماً:

- عند ولادة؟؟ على الخير، على البركة. إنشالله بالسلامة. والله آني سمعت من أم سليم. لاكت عشرين دينارمو هواية سيد محمد؟

ود لو أهوى على هذا الرأس الفارغ بالعصا، كي يبعد صاحبه عن نظره بأسرع ما يستطيع. هتف بحنق:

- سيد هاشم، أنت رجال وآدمي. ليش متعرف عشرين دينار مو هواية على مصاريف الولادة؟ إذا ما عندك فلوس كل لي سيد هاشم بالله.

فعصر، ذلك السيد المزيف، كيس الذهب بشدة وتراجع قليلاً إلى الوراء:

- لا تصبح مولانا أبو جاسم، شلون ما عندي!

ثم سكت لحظات قبل أن يقول بصوت منخفض ناعم:

- تره ناخذ بالميه عشرين.

- هاي شنو؟ شدعوه؟

- والله ما أكدر سيد محمد. ما أكدر اتساهل أكثر. أكو جماعات دياخذون بالمية خمسة وعشرين. هذا كرابيك عبد الوهاب ابن حجي رزوقي، تعرفه؟ دياخذ بالمية خمسة وعشرين. صاير رجال مولانا وعنده ثلاثين حجة بيت، ودياخذ وينطي.

- لا تخششنا بإيراد ومصرف سيد هاشم. أخذ بالمية عشرة.

- لا وداعتك أبو جاسم. ميصير، ما أكدر. ما يصرف. إذا ما يعجبك..

- زين.. بالمية خمصطعش.

فوضع سيد هاشم الكيس بهدوء في إحدى جيوبه، ثم مد يده إلى جيب آخر عميق فأخرج حزمة من الدنانير وأوراق الكمبيال الفارغة. سلم عدة أوراق إلى محمد جعفر:

- أمليها يابه. أربع دنانير بالشهر. هاذي كل كمبيالة بعشر فلوس. شايل طوابع؟ صيح على اسماعيل يشهد ودزنا على جاي.

كان مسروراً حين ترك المقهى خلفه وواجه ظلمة الزقاق، وكان يدرك أن سروره السقيم هذا متأت من حزمة الدنانير التي يحس ضغطها على صدره؛ إلا أن إدراكه لم يقلل قط من خفة قلبه.

من يدري ماذا سيستطيعان عمله وشراءه بهذه الكمية الضخمة من النقود!

كان الهواء بارداً وبعض الروائح الكريهة تنبعث من الزوايا المظلمة؛ وكانت نوافذ البيوت تقطع أرض الزقاق بخطوط ضوئها. رأى باب منزلهم مغلقاً فدفعه بهدوء ودخل. كان الحوش ساكناً خالياً، فخطر له أن أطفال الأكراد يغطون في نوم عميق. أدهشه أن يجد أم سليم وسليمة جالستين قرب زوجته. كن مشتركات بحيوية في حديث قطعنه عند دخوله وهن يتبادلن النظرات اللامعة. كانت أم سليم ترتدي ثوباً من الحرير الناعم يشد جسمها الممتلئ ويظهر حناياه. أحس رقة غير اعتيادية في صوتها المغري وفي نظراتها إليه. لم تبقيا غير دقائق وانصرفتا. سألته زوجته بعد أن أغلق الباب وراءهما:

- ها، محمد؟ أخذت؟

كانت لا تزال جالسة في مكانها واللحاف يغطي وسطها. قال:

- إي.

واقترب منها ثم أخرج الدنانير فوضعها في حجرها. أحصتها وابقتها بين يديها ثم نظرت إليه بعينين واسعتين:

– شكد أخذ فايز؟

كان خداها مدورين صقيلين وخصل من شعرها تلامس جبينها. أمسك بيدها:

– شعليج. عدنا هسه فلوس تكفينا.

انحنى عليها فرفعت له فمها فقبل الشفتين الناعمتين. شم فيها رائحة صابون معطر وضغط بفمه على شفتيها. شعر بدوار بسيط في رأسه؛ أهو يشتهيها بهذا العنف؟ كانت أصابعها مستسلمة لقبضة يده، وكان يعلم أنها تستطيع أن تستسلم بكليتها إليه. همست حين رفع وجهه عنها:

– نكدر نشتري شوية غراض للجاهل؟

فهز رأسه بالإيجاب. كان ينظر إلى رقبتها وشق ثوبها واللحم الأبيض الناعم بين ثدييها. ابتسمت أمام عينيه وعصرت يده:

– ونحجز غرفة بالمستشفى؟

ثم سكنت برهة وهي تتأمله مبتسمة وعادت تهمس:

– اشتئنا؟؟

فأشار برأسه دون كلام وانحنى فقبل شفتيها مرة أخرى ورقبتها الحارة. لم تقل شيئاً، لكنه أحس بغموض أنه على وشك أن يفقد رقابته على نفسه. قال وهو يعدل قامته:

– تكدرين تطلعين للمسواك هالأيام؟

ثم ابتعد عنها، فعادت إليها حيويتها وفرحتها:

– إي. ليش ما أكدر؟ بلكي تجي ويايه سليمة تشيل الغراض.

فبدأ ينزع سترته:

– أحسن.

ثم سمعها تضحك ضحكة قصيرة وتهتف:

- تدري شتريد منك أم سليم؟ إحزر.

فتصور ثوب الحرير الضيق وحنايا اللحم المغرية وبقي مستمراً على نزع ثيابه:

- خير انشالله، شتريد؟

- أتكول بلكي تقنع سيد هاشم يأخذ سليمة.

فتوقف لحظة:

- شنو؟ سيد هاشم يتزوج سليمة؟ مجنونه هاي؟

فاندفعت زوجته في كلامها وجهها مليء بإمارات سرور خفي:

- شمدريني. اتكول ولو ينطينا خمسين دينار بس متقدم.

كان مشمئزاً منزعجاً، إلا أنه شعر أن حالته النفسية تسمح له بتقبل هذا الأمر. سمع زوجته تعود إلى حديثها وهو يلبس دشداشته:

- تدري، هذا سيد هاشم متزوج مرتين؟ يكلون كل نوبة يموت مرته من الجوع ويخليها تنهزم من عنده. ويبين أم سليم تعرف هالحجاية.

ضحك بإرتياح:

- أشو إنت هم متونسه؟

- آني شنو. أم سليك كاعده تحجي. جوا عندي بعثة.

كان ضوء اللمبة أحمر ضئيلاً فسار إليها وزاد من قوة ضوئها:

- هذوله ما يستحون يتعاركون على فلوس الكهرباء ويخلوهم بكطعوه؟

همت زوجته بالكلام حين ارتفع وقع خطوات قرب غرفتهم. قالت هامسة:

- هذا سيد هاشم.

كانت عصاه تضرب الحجر بين لحظة وأخرى وسمعاه يهمهم

«الله أكبر. إيه. لا حول ولا قوة إلا بالله. الله أكبر». قبل أن يفتح باب الغرفة المجاورة بضجة ثم يغلقه عليه. قالت زوجته باهتمام وجد:

– تكول أم سليم إذا صارت مسئلة سليمة هي ترجع الكهرباء للبيت.

فضحك هازا رأسه ولم يجبها. سكنت لحظات وهي تراقبه بسرور وتعبث بالدنانير بين أصابعها، ثم قالت:

– تعال شويه يمي.

وضربت على الفراش قربها ضربات خفيفة:

– تعال هنا نتحاسب شويه.

فأجابها وهو يهم بالجلوس على كرسي قريب من اللمبة:

– أريد أقرأ. أجليها لباجر.

فألحت:

– لا بالله. تعال هسه، ما شفناك اليوم.

وعادت إلى الضرب على الفراش وهي تبتسم:

– تعال أكعد هنا. يالله بالعجل.

جذبته بسمة عينيها فسار إليها وجلس قربها على الجرباية ذات الأعمدة الصفراء. كان راضياً عن أشياء لا يدري ما هي؛ لعلها نفسه ولعله نظام العالم الذي خيل إليه، دون اطمئنان، أنه يسير سيراً طبيعياً لا يخالف العدالة. أمسك بيدها الحارة. كانت الغرفة ذات ضوء شاحب يملؤها بالأحلام، والسكون يلف الدنيا الصغيرة حولهما. وكانت زوجته دافئة، تخفي في أعماقها ابنهما المشتاق إلى الحياة وإلى البهجة والنور. ولم يكن يدري أكان سعيداً أم لا، وكان يحس أنه لا يستطيع أن ينسى كل شيء.

(٣)

رأى الساعة في باب المعظم تشير إلى الخامسة والربع قبل أن يهم بعبور الشارع. كانت السماء شفافة تلمع كالزجاجِ الأزرق وبناية مديرية السجون تقف بجمود أمامه. لم يسر طويلاً هذا المساء، لكنه أحس بالإعياء والملل يتملكانه. كانت السيارات في صف، لا نهاية له، تمنع عنه العبور إلى الجهة الأخرى، وكان الجو مشبعاً بغبار يزيد في ظلمة الشارع. خف ألم معدته أثناء مرافقته لتلك العجوز اللعينة إلى موقف سيارات بعقوبة. لكنه لما يزل يشعر بثقل مبهم في أحشائه. لم تنقطع عن هذرها طوال سيرهما من البيت إلى باب المعظم. كانت تحدثه عن أهله وعن بعقوبة وعن زوجته كأنه لا يعلم شيئاً عنهم. أي كابوس مريع كانت عليهما!

لقد أنشبت أنيابها العتيقة فيهما خلال مدة بقائها ولبثت تفترسهما على مهل. ولكنهما تخلصا منها. ولكم شعر بارتياح عظيم يفعم قلبه وهو يودعها أحد الباصات الكبيرة ويدفع الأجرة عنها ويتركها وهي تتظاهر بالبكاء.

كان متعباً، ولقد أحس أنه لا يستطيع أن يصل البيت سيراً على قدميه، فانحرف نحو موقف الباصات. من أين جاءه كل هذا التعب فجأة؟ لم يكن يرغب في أية خطوة يخطوها، وكان بحاجة إلى نومة عميقة لا ينتظره بعدها أحد. أهي المشاعر المرهقة التي سببت كل هذا؟؟

كان الباص الواقف خالياً فصعد إليه. خطر له بغتة وهو يرتقي الدرجات القليلة، أنه ترك إنساناً يموت وراء ظهره يوماً ما. كان ذلك منذ شهر أو أكثر؛ ولكن ما معنى مرور الزمن في شؤون كهذه؟

إنه يندس متطفلاً دون أن يسدل الستار على أنفه المآسي. واحتلت ذهنه صورة الشاب المحتضر. لم يتميز ملامحه، ولكنه عاش لحظة جو تلك التجربة المرة. لعله سيعيد عمله لو تكررت الأزمة، لأنه لا يزال يجهل معنى موقفه ذاك.

كان مستسلماً لحركة الباص تسحب أفكاره وتسلسلها، ولم يعد يشعر بجسمه المتعب وهو على الكرسي المريح. ما معنى أن الوقت يمضي؟ ماذا حجز بين فراره من الشاب وبين مسائه الأسود هذا؟؟ أهي تلك الحوادث التي قاساها أقرب الناس إليه، ومرت دون حساب لشخصه؟ إنه يتذكر، يستطيع أن يتذكر فقط. هذا هو ما اكتسبه. ولقد عمل ما بوسعه ليتدخل، لكنه وضع على الرف بشكل مهين؛ وشارك زوجته وابنه آلامهما ومصيرهما كما يمكن أن يفعل أي شخص حساس غريب عنهما. فهل أغنت هذه التجارب، إذا أمكن أن نسميها كذلك، أغنت نفسه فجعلته لسبب من الأسباب قادراً على الصمود أمام استعطاف ذلك الشاب الحزين؟

إلا أنه ليس هناك من يلتجئ إليه، ولذلك لم يكن منطقياً أن يسأل عن السبب في كل هذه الآلام التي لاقتها زوجته.

اعتدل في جلسته قليلاً ووضع قدمه فوق حافة الباص البارزة. كانوا يسيرون ببطء شديد وسط الشارع المزدحم، وأضواء النيون تنتشر في كل مكان. شعر، وسط هذا الازدحام، أنه غير قادر على الثبات طويلاً. لم يجد من يلتجئ إليه، لم يكن هناك من يلتجئ إليه كي يمنح فشله معنى. كان يجب أن تنتهي «التجربة» في الوقت الذي يكتشف فيه وحدته. إلا أنها استمرت، وكاد هذا الأمر يؤدي به إلى الجنون. جنون صامت يدهم العقل فيسكته إلى الأبد. إنه يتذكر، يستطيع أن يتذكر. كان الوقت فجراً والسماء رمادية بيضاء وبعض أضوية المستشفى الحمراء لا تزال مشعلة في الممرات والردهات. وكان مستلقياً على كرسي طويل في شرفة قريبة من غرفة العمليات.

أدخلوا زوجته، منذ الصباح، تلك الغرفة الفظيعة ولم يسمحوا له بمشاهدتها. شعر، خلال معاناتها آلام الوضع وسماعه صرخاتها الوحشية، برجليه تخذلانه. لم تكن تصرخ بيأس، بل كانت تستغيث مستنجدة. وكان في حركة مستمرة رغم الضعف المتزايد في أطرافه. إن هذه الآلام بدون مبرر، ولا يمكن لأي إنسان أن يقبلها. ولكنٍ، ماذا يعني رفضنا لها؟ إنه لا يعني شيئا. وهو يقينا، كما نحن دائماً، بعيدين عن الألم، عن المتألم. ثم سكنت فجأة قبيل مغرب الشمس، ولم يخبروه، بوضوح، ما حدث، وكانت المرضة تخرج مسرعة ثم تعود ماضية بالقرب منه، مكتفية بالإجابة على أسئلته بهزة رأس خفيفة «زينة. زينة» ولم يسمحوا له بالدخول عليها، وطلبوا منه أن يرتاح. كان الصمت عميقاً في غرفة العمليات، في عالم زوجته؛ وحين خرج الطبيب، بعيد مغيب الشمس، لم يتضح لمحمد جعفر من معالم وجهه المتعبة ماذا ترك خلفه في تلك الغرفة. لقد بقيت بمفردها. وتركوها هكذا بعد أن أخرجوا الوليد الميت. لم يسلموه له وأرادوا أن يمضوا به، لكنه لحق بهم. كان ضعيفاً شاعراً بعجزه أمام قوة مجهولة. أرته المرضة، وهي تنظر بأسف إليه، قطعة اللحم الحمراء الساكنة. كانت هناك جروح في رأس الوليد ووجهه. لم يقل لهم شيئاً. كان هذا إذن هو رمز حياتها وغاية آلامها المبهمة، وأي رمز يائس! لم يخطر له أن يأخذه منهم، لم يفهم فائدة هذا العمل، وعاد إلى مكانه قرب الغرفة الصامتة بعد أن أعلمته المرضة بأن زوجته لا تزال نائمة تحت تأثير المخدر. كان متعباً منهوكاً، وكان يحس أنه بعيد عنها، وأنها لا تمت له بصلة. إن مقاساتها وآلامها لا معنى لها البتة. لم يعد لها معنى منذ أن انطفأت في جوفها تلك الشرارة. ولكنها تتألم مع ذلك، ورفضنا لهذا الألم لا معنى له مطلقاً. إن جوهر الألم هو امتلاكه، هو أن تعيشه بلحمك الطري. وكان أمام باب عالمها المغلق، يحس بها بعيدة عنه. إنها تتألم بمفردها. وأخذته قبيل منتصف الليل غفوة وهو في جلسته في الشرفة. لا يزال يتذكر

الكوابيس المريعة التي احتشدت عليه في تلك الغفوة، كوابيس لا يعلم مم تكونت ولم أدخلت الرعب إلى قلبه. رأى نفسه محاطاً بجدران عالية جداً من الصلب اللامع وهي تضغط على جسمه من كافة الأطراف حتى تكاد توقف أنفاسه. وكان يفكر، في محنته تلك، بطريقة للخروج ويتساءل - كيف يمكنه ذلك؟ وكانوا يجيبونه بقسوة متكبرة أن يدفع الجدار الأيمن ويخرج للفضاء. وكان متألماً غاية الألم لهذه اللهجة المهينة التي يكلمونه بها، ولهذا الغباء الذي يسيطر عليه ولا يدع له مجالاً لمعرفة الجدار الأيمن وكان يريد أن يتوسل ويطلب الرحمة، ولكنه يعود فيقول لنفسه «إنهم يعاملونني كأني شخص محترم مدرك، فيجب أن أتظاهر بأني كذلك» وكان متألماً تخنقه عبرة تقف في حنجرته.

واستيقظ مفزوعاً على الصرخة الحيوانية التي شقت نومه وشقت صمت غرفة العمليات. لم يع، في اللحظات الأولى، سبب هذه الصرخات المتصلة، وكانت أطرافه ترتجف والعرق يبلل جسمه كله. قفز من مكانه وأمسك بمسند الكرسي مستمعاً إلى الصراخ المؤلم. كان الضوء ساطعاً في الغرفة حيث ترقد زوجته، وكانت أعصابه متوترة إلى الدرجة القصوى. ماذا يعني كل هذا؟ أهي تتألم إلى هذا الحد؟ ولم لا يسعى أحد إلى نجدتها؟ لماذا لا يشاركها إنسان ما، على هذه الأرض، آلامها؟ وسمع نفسه يطلق صيحات وأصواتاً عالية لا معنى لها، ثم ركض نحو الغرفة. لم تكن المسافة الفاصلة بينهما غير أمتار قليلة، فاجتازها لذلك خلال بضع ثوان لم يمر عليه مثلها طوال حياته. لا يزال يرى تفاصيلها كأنها حدثت له منذ قليل. كانت كل ثانية عبئاً بالغ الثقل على عقله، وخيل إليه بعد ذلك أن زيادة ثانية واحدة كانت ستودي بهذا العقل. لم يكن إنساناً عادياً آنذاك يخضع لقوانين المنطق، وكانت حركاته تصدر عن قوة هائلة أطلقت صدفة من عقالها. تركزت مشاعره وإدراكاته بصورة جنونية في هدف بدا له قريب المنال. كان مؤمناً بقدرته على أن يعمل

ما يشاء؛ ولم يندفع إلى غرفة العمليات إلا لتيقنه يقيناً لا إنسانياً بأنه سيرفع عن زوجته آلامها وسيضعها على نفسه هو. لم يكن لقوانين الطبيعة وجود تجاهه. سينفذ إلى جسدها المحموم ليعيش أزمتها المضنية، ولم يداخله الشك مطلقاً. رأى عتبة الباب والكاشية الحمراء المكسورة، فانحفرت هذه الصورة في مخيلته قبل أن تفاجئه اللطمة القوية. لا يزال يجهل سببها، فلعلها المرضة التي خرجت مسرعة آنذاك، ولعله الباب الذي كان يفتح بعكس الجهة التي أراد بها فتحه، ولعلها آخر الأمر صاعقة من السماء. وقع في الحال على الأرض فاقد الوعي. كان أمراً مخجلاً من بعض النواحي، إلا أنه أبعد الخجل عنه بعد أن تأمل فيه بعد ذلك. لم تفقده الضربة رشده، بل أن حواسه صدمت داخلياً فتوقفت عن العمل. وخيل إليه، في أيام تلت، أن عقله ذاته قد أنقذ في اللحظة الأخيرة. لم يدر ماذا كان يمكن أن يحدث لو دل الغرفة؛ إلا أنه بشكل من الأشكال، كان سيفقد عقله إلى الأبد.

وقف الباص وقفة مباغتة دفعت به إلى الأمام. كان الازدحام شديداً قرب الشورجة، وخط السيارات الطويل يمتد إلى نقطة لا ترى. أزعجته نوبة الذهول هذه التي رمته بعيداً عن محل نزوله المعتاد. قام ثم انسل من مقعده خلال أجساد الواقفين وانتظر قرب الباب المغلق. رأى أمامه وراء زجاج الحاجز وجهاً جميلاً لفتاة في العشرين أربكتها نظرته المفاجئة فرمشت جفونها وأدارت رأسها نحو الشارع. كانت عيناها فاقعتي الصفرة وحمرة شفتيها خفيفة. لذه التملي من رؤية ملامحها الأنثوية الدقيقة ومن الاحمرار الذي كسا خديها. كان شعرها أشقر قصيراً لا يمس رداءها الأسود، وكان بلوزها الأخضر مندفعاً عند صدرها اندفاعين كبيرين. إنها بذرة امرأة، وهي لا تزال رائعة الغنى بقابليات الحياة. هل يمكنه أن يحتضنها ويقبلها ثم يرافقها إلى غرفة شاحبة الضوء ليحاول معها تجربة الخلود؟؟ هكذا بكل بساطة، لأن كل شيء يفسد حين تلابسه ظروف أخرى لا وجود لها الآن.

تحرك الباص فأحس بعظام صدره تضغط على عامود الحديد. نزل في موقف سينما الحمراء واتجه متدافعاً مع المنتظرين نحو الحيدرخانة. كل شيء يفسد حين يتحقق. أليس في هذا مأساتنا المفزعة؟ كانت رغبته الجنسية تضغط على أعصابه المتعبة فتزيد في إرهاقها. لقد نسي تلك اللحظات الفذة التي تسمى نشوة. زالت من نفسه كأنه لم يعشها قط. وهذه الرغبة الكاملة الصامتة التي تهب أحياناً بوحشية فتشقيه ساعات، لم تستطع بعد أن تفقده احترامه لنفسه وتبيح له عودة بائسة إلى عادته السرية.

كان الهواء ناعماً بارداً، وضوء النيون الكئيب يملأ ساحة الشورجة. لم تزل في السماء بقية نورٍ باهت تطفو على ظلام الليل. هذه الليلة، إنها تحمل إليه وعوداً لم تحملها الليالي منذ أيام طويلة. وعود غامضة مثل مولد الفجر. وكان يحس بخوف مستقر في أعماق نفسه، خوف لا يستطيع أن يؤكد وجوده، لكنه يسيطر عليه كما يسيطر على الأطفال حتى يفكرون بآمالهم. وهو مثل ذلك الشعور الذي احتواه ليلة جاء زوجته المخاض. كانا قد ناما بعد أن داعبها وقبلها طويلاً في ظلام الغرفة الدافئة. لم تخبره بشيء، كانت صامتة تحتضنه وتبعده برفق عن بطنها حين يستند عليها. ولكن صمتها كشف له عن حبها لرجولته وللحياة التي يريد بقوة أن ينقلها إليها. إلا أن شعوراً مضنياً أمسك بقلبه لحظة، شعوراً أسود بكآبة لا تطاق. أي مستقبل يؤدي إليه حاضرهما؟ وفي ذلك الظلام العطوف وهو يحس بحرارة زوجته ويخفقان قلبها، استطاع أن يتناسى كل خوف. وهمس في أذنيها حديثاً متقطعاً عن شوقه إليها وإلى امتلاكها؛ وكانت راضية سعيدة لا تريد أن تفوتها كلماته المحمومة. لكنها طلبت منه أن يؤجل الأمر إلى الغد، وكانت تحس توعكاً، ولم يأت الغد، غدهما، وسمعها في منتصف الليل توقظه مستنجدة متألمة وتتشبث بذراعه تشبث الغريق. وهكذا مضى الشوق مع العاصفة التي لا ترحم، وبدأت معاناته لتجربة فشلٍ أخرى.

كان خط السيارات الطويل لا يزال ممتداً دون حراك، والضوء قد تلاشى من السماء. خيل إليه أن كل هذا حدث منذ زمن بعيد؛ وشعر بنفسه يرتاح لهذه الفكرة التي لم يستطع الإيمان بها بسهولة. لم يكن الازدحام شديداً قرب الجسر، وكان يسير بخطوات بطيئة ثقيلة دون أن ينظر إلى وجوه المارين رغم شعوره بوطء وجودهم. لا شيء يريح في هذه الوجوه. آلمه، في المستشفى، ذلك الانطباع الذي كان يصدمه في وجوه معارفه وبعض موظفي المستشفى. انطباعٍ يائس بانعزالهم عنه وعن محنته. كان يرى بفزع في عيونهم صمتاً موحشاً لنداءاته، وكان يشعر بفزع أشد حين يخطر له أن زوجته، في نوبات صحوتها، قد ترى مثل هذا الصمت في عينيه. هذه الـ «قد»، كم أرقته ليالي ولم تزل. إنها الشكل المستديم في ألا نكون بشراً. ومن يدري، فقد لا نستطيع، كلنا، أن نشبت حقيقة أخرى تنقض هذا الشك. إنه الوجه الآخر، الهارب منا على الدوام.

لحظ مقهى حسن عجمي يمر به فتوقف أمامه. نوبة سهوم أخرى. خطر له أن يشرب شاياً قبل إيابه إلى البيت فدخل. كانت قنفات المقهى محجوزة جميعها فهم بالخروج حين رأى إسماعيل يشير إلى كرسي فارغ في زاوية منعزلة. لم يرتح لجلوسه قرب جماعة من الشيوخ الثرثارين، لكن مجيء إسماعيل أكد بقاءه. كان يرتدي دشداشته الزرقاء ويبدو عليه كأنه صاحب الدار. صاح:

- مساك الله بالخير أبو جاسم. شلونك؟

ولم تكن الضوضاء تبرر صياحه. أجابه محمد جعفر:

- الله بالخير. قد جاي أبو حقي.

- ممنون.

ثم توقف أمامه. كان قصيراً نحيلاً ولحيته بيضاء في صفرة قاتمة. لمح في عينيه الصغيرتين القذرتين بصيص عطف وإشفاق. مال نحوه وهمس قرب وجهه:

- ما أدري شلونها أم. . أم، شلونها الأهل؟ ماكو جاره لعيونها؟ يعني راح تبقى بصيرة؟

كانت رائحة التبغ كريهة فيه وأنفاسه مشبعة بحموضة معدته. قال محمد جعفر بسرعة:

- زينة. الله كريم. فد جاي بالله بالعجل.

فتراجع إسماعيل وجمد هنيهة قبل أن يتحرك:

- ها؟؟ بيها الخير انشالله. بيها الخير.

ثم مضى. كانت عظام ظهره بارزة من وراء الثوب، وطرف يشماغه يتهدل فوق رقبته. لمس لأول مرة مبلغ البؤس المتمثل في هذا العظام؛ وأدرك ما معنى أن يكون الإنسان صانع مقهى في أواخر حياته. كان يعطف على إسماعيل عطفاً مزيفاً، كالصدقة التي ترمي إلى فقير دون معرفة لمقدار عوزه. ولقد كشفت زيف عطفه نظرة من تلك العينين الخامدتين القادرتين على الإشفاق المخلص.

كانت الساعة تقارب السابعة، رآها من زاويته الباردة؛ وكان بعض الأشخاص قربه يثرثرون دون انقطاع. جاءه اسماعيل بالشاي ووضعه جنبه على طاولة صغيرة ثم انصرف دون كلام. كان جو المقهى مضبباً وقسم من الأباريق النحاسية المصفوفة تلمع تحت أضواء النيون. لم يشعر برغبة في العودة إلى البيت. لا يزال يملك وقتاً يحاول خلاله فهم نفسه وفهم مخاوفه الغامضة. لم تطلب منه، لم تستطع أن تطلب منه العودة سريعاً، ولكنه يعلم أنها تنتظره الآن.

كانت في شغل بالتغلب على أعصابها وعلى الأثر المروع الذي كان يسببه بكاء تلك العجوز اللعينة قبل سفرها. لقد أكلت طعامها طوال أسبوعين وحاولت ببكائها الموحش وكلامها المستمر أن تجعل من فقدان زوجته بصرها حكماً بالموت عليهما. كانت رسولة أهلهما، وكانت ترى من واجبها ألا تدعهما ينسيان محنتهما. توسلت به زوجته قبل يومين ليعيدها إلى يعقوبة. بكت بحرقة على كتفه وأخبرته أنها

ستجن لو بقيت عمة جبار يوماً آخر، ساعة أخرى. وأحس آنذاك ما هو من زوجته، وكان توسلها أول بوادر الحياة فيها، فتمسك به وأعاد عمة جبار إلى بلدتها. وبقيت زوجته بمفردها. لا تزال بمفردها تنتظره الآن في ظلمة غرفتهما، في ظلمة عالمها.

خيل إليه أن الضوء في المقهى شديد السطوع. لكأن صاحبها خشي أن يتسرب الظلام إلى مكانه. ما أسخف هذا!

لقد أراد، أيضاً، أن يمنح النور لمخلوق آخر، ابنه، فهل كان ذلك سخفاً منه؟ وهل كان سخفاً من زوجته أن تتجرع كل تلك الآلام لينتهي الأمر بموت وليدها وفقدانها نظرها؟ وشعر أن الشيء السخيف بصورة مؤلمة هو أن يفتش عن العدالة في هذه الشؤون.

لم يعلموه إلا أخيراً ماذا تعني إصابة زوجته بالحمى الدماغية إثر ولادة صناعية؛ وكان ينظر إلى وجهها الممتلئ المحتقن دون أن يتقبل أن هذا الوجه البريء سيفقد لغير سبب ضوء عالمه. لم يفهم هذا الحكم الذي نطق به عليها من قبل قوة وحشية عمياء. أصابته دهشة مستمرة، وكان ألمه يتضاءل أمام بهته. بقي مبهوتاً خلال أيام أصابتها بالحمى، وظل كذلك بعد شفائها وإخراجها من المستشفى وعودتهما إلى البيت.. إلى غرفتهما وإلى عزلتهما. لم يكن يدرك بوضوح ما يصيبه حين يواجه عينيها الواسعتين السوداوين. كان هناك تناقض مرير يفطر القلب بين رؤيتها بكل حياتها... ماضيها وأنوثتها.. وبين تلك الحقيقة الغريبة في ذهنه التي تكرر وتكرر دون ملل: إنها لا ترى شيئاً، إنها لا ترى شيئاً.

ولم يجد حلاً، ولم يعلم هل يمكن أن يوجد هذا الحل. وكانت وحشته لا حد لها في غرفتهما. اعتادت الجلوس على الفراش دون حراك. كانت تخشى الحركة بدرجة مؤلمة، ولم تألف معرفة الأشخاص من أصواتهم، وكانت تبكي أغلب ساعات الليل والنهار؛ وكانت وحشته لا حد لها. ولعلها تبكي الآن أيضاً، فوق سريرهما

الخالي. أحس بقلق لهذه الفكرة التي انتهى إليها. كانت تتجنب البكاء حين تعلم أنه في الغرفة. وكانت تجهل كيف يمكنها أن تتصرف لترضيه. أخذت تشك في قيمة وجودها في حياته، وما هي منه. ولم يغب عن ذهنه ذلك، واستطاع أن يحدس المعنى الذي قصدت إليه حين أصرت صباح اليوم على النزول إلى الأسفل لتغتسل في الحمام الحار الذي هيء لها.

ساعدها جميع أهل الدار على إتمام مشروعها بنجاح. ولم يتحمل مشاهدة تهجسها وعدم ثقتها بنفسها حين خرجت من الغرفة. ولكنها عادت قبيل الظهر نظيفة محمرة الخدين وجلست بسكون تمشط شعرها. بقي يتأملها أثناء ما كانت عمة جبار تحزم حوائجها، ولم يفتقد شيئاً فيها. لا زالت بشرة رقبتها وذراعيها بضة ناعمة لا تشوبها الغضون، وشفتاها ممتلئتين رطبتين؛ وعيناها، رغم الغيمة المبهمة التي تظللهما، صافيتين طويلتين. وكان نداء جسدها الفتي يبعث فيه نشوة غامضة. كان يعلم أنها بحاجة ملحة لعمل ما يعيد إليها شعور الطمأنينة، شعور الثقة، الذي يبدو أنها أضاعته. وكان يريد هو أيضاً أن يتم معها هذا العمل. ولكن أعماقه المجهولة كانت تعكس على نفسه قلقاً لم يجد له أساساً حتى هذه اللحظة. هل يخشى أن يزيل هذا التوتر الجنسي الذي لازمه منذ أكثر من شهرين؟ أم أنه يتهجس فشلاً مؤلماً لا يتحملانه؟ أم أنه يشك في تفسير قصدها؟ لم إذن كل ذلك الاستحمام وكل تلك الخطط لطرد عمة جبار؟ كلا، إن إحساسه لا يخونه في هذه الناحية، ولن يلبث بعد حين أن يتأكد من ذلك.

كان الاستكان فارغاً على الطاولة الصغيرة بجانبه. إن منظره غالباً ما يلفت عينيه، فهو يبدو له كمخلوق ضئيل ذي مشاعر، ينتظر مصيره المفجع ببلاهة مؤلمة. رأى يداً سمراء نحيلة تمسك بالاستكان وترفعه وسمع إسماعيل يقول له:

– جاي لاخ أبو جاسم؟ خدرنا جديد.

كان وجهه صغيراً يطبعه الإرهاق بقسوة، ولحيته قصيرة حائلة اللون. لاحظ الأقذار في طرفي عينيه الجامدتين. كان إسماعيل ينتظر أيضاً ببلاهة مؤلمة مصيراً مفجعاً. وخيل إليه أنه لا يستطيع أن يؤكد أنه هو نفسه لا ينتظر مثل هذا المصير. ولكن، أببلاهة أيضاً؟

هز رأسه نفياً ولم يجب، فمضى إسماعيل. قام بعده فترك المقهى بعد أن تطلع إلى الساعة ورمى قطعة النقود على الصينية.

كان الهواء بارداً فأسرع في سيره. وصل محل كباب السليمانية فاشترى، بعد انتظار مزعج، عدداً من الأسياخ. كانت عمه جبار تطبخ لهما، وكان ذلك أحد مظاهر الترف التي رافقت وجودها الثقيل. لم تكن الطريق مضاءة، لكنه بقي محافظاً على سرعة سيره، ورائحة الكباب النفاذة تطرد عنه روائح الأزقة. رأى، قبيل دخوله البيت، شبحاً يقف في زاوية مظلمة قرب الباب. تمعن فيه قليلاً فعرف سليمة. نادى عليها مستغرباً:

– سليمة؟

فأجابته بصوت لين:

– إي.

رأى شفتيها تلمعان في الظلام، تمهل في سيره:

– ليش واكفه بره؟؟ تعاركت وياج امج مرة لخ؟؟

أجابته:

– لاع.

فألح عليها:

– صدك؟

كانت أمها، هذه الأيام، تعتدي عليها دون أن يعلم أحد بالضبط سبباً لذلك. لم تقل شيئاً، فعاد يكلمها:

– ليس لعد واكفه هنا؟ تعالي خشي جوه.

كانت تبدي حياء حين يتحدث معها، وكان يشعر أنها تكن عاطفة تقدير له. لعلها أحست أن لطفه الموجه إليها يحوي احتراماً من نوع الخاص.

لم تجبه، وخيل إليها أنها تدير برأسها ناحية أخرى. حيره تصرفها. أراد أن يمر ويتركها لشأنها لكنه أحس بغموض أنها تتمنى لو ساعدها على أمر ما. قال وهو يقترب منها:

– ليش ما صعدت يم سعديه؟

كانت مطرقة إلى الأرض، وقد غطى شعرها قسماً من وجهها فلم يعد يتبين ملامحها:

– لا توكفين يم الحايط، أكو عكارب هوايه هالأيام.

فابتعدت ببطء عن الحائط الذي كانت متكئة عليه بظهرها. صارت قريبة منه. كانت بشرتها، على ضوء الطريق، صفراء في عينيها الواسعتين بريق. تذكر أنه لاحظ قبل أيام نمو ثدييها واندفاعهما القوي. إن هذه المخلوقة ينبوع رائع للحياة. لم تكن ملابسها آنذاك تخفي حنايا جسدها الفتي، ولقد بهره اكتشافه لها.

قالت فجأة بصوت صاف خافت:

– سيد هاشم عدنا بالكبه. تريدني أكعد وياه.

إنها الينبوع الخالد. لم يفهم قصدها أول الأمر:

– شبيه سيد هاشم؟

– ما أدري.

لكنه علم ماذا كانت تعني. أراد ألا يقطع سلسلة إحساسه البديع بهذه الحياة الفوارة أمامه. لماذا يلوم ذلك السيد العجوز لأنه يحوم حول سليمة ويسعى لامتلاكها؟ إنه كالفراشة الحمقاء تدور حول النار التي تحرقها. فراشة حقاً! ولكنه لومه لا يفيد والصفقة قد تتم بين يوم وآخر. قال بصوت أجش:

- تعالي ويايه لعد، تعالي. راح نتعشى، أنت هم اتعشي ويانا.

اتعشت؟

ثم سار داخلاً فسمع وقع أقدامها الخافت يتبعه. كان الحوش مظلماً لولا مستطيل الضوء الأحمر المرتمي من نافذة أم سليم. تلمس طريقه ببطء وحذر نحو السلم.

همست سليمة وهي تصعد الدرج خلفه:

- بعده كاعد عدنا.

فتملكته رغبة في الضحك ولم يجبها.

تعشوا سوياً تحت ضوء اللمبة الأحمر، هو وزوجته وسليمة. وكان يحس بخفقة في قلبه وهو يداعب سليمة بكلامه وأسئلته. لم تخف عنهما كرهها للسيد وفزعها مما تدبره أمها؛ وكانت تشتمه وتتمنى موته بصورة مستمرة أضحكت زوجته. أخبرتهما كيف تجبرها أمها على الجلوس معه في غرفتهم، وكيف تكلمه عنها وعن شبابها وصغر سنها؛ وكانت منطلقة بشكل لم يعهده فيها. إلا أنهم توقفوا عن حديثهم الصاخب وأنصتوا بهدوء ساخر حين سمعوا ضربات العصا على حجر الطارمة. رأى عيني سليمة تلمعان ببهجة وهي تنظر إليه؛ ولم يلمح فيهما أية قابلية للحقد. مر السيد قريباً من نافذة الغرفة وهو يهمهم مع نفسه «الله أكبر. إيه.. الله أكبر.. الحمد لله» ثم سمعوا ضجة دخوله إلى غرفته وصفقه لبابها بعنف وراءه.

لم تبق سليمة غير دقائق قصيرة بعد مجيء السيد، وأسرعت بالنزول إلى الأسفل.

سكنت الغرفة بعد ذهابها. كان جالساً على كرسي أمام زوجته التي اضطجعت على الفراش وسحبت اللحاف إلى صدرها. لم يشعر بقلق وخطر له عدة مرات أنه سيتصل بها بعد قليل. قام ينزع ملابسه فسمع زوجته تسأله:

– وين رايح محمد؟

فأجابها وهو يخلع سترته:

– دا أنزع.

فأردفعت برقة:

– آني هم أريد أنزع هدومي. أريدك تعاوني.

فأسرع بخلع ملابسه وارتداء دشداشته ثم اتجه نحوها. قالت حين سمعت خطواته القريبة:

– أكو نفنوف نوم أخضر بالقنطور، أول طبكة. جيبه وياك عيني محمد.

أحضر الثوب معه، وكان رقيقاً مشبعاً برائحة عتيقة. تذكر أنه اشتراه لها أول زواجهما. وقف قريباً منها. كان ضوء اللمبة شاحباً يرتمي على وجهها بانحراف، وكان خدها الأيسر مدوراً ذا حمرة خفيفة وشعيرات الجفن ترسم ظلالاً طويلة على صفحة أنفها. وكانت فتحة الصدر ضيقة وخصلات شعرها الأسود تخفي رقبتها وأذنيها. أحس بسكونها الذي لم يألفه من قبل فيها، سكون غامض لا يريح. وضع يده برفق على كتفها، محيطاً رقبتها وشعرها بذراعه. شعر بها تميل عليه وتضغط برأسها على ذراعه. ثم همست:

– شكد باردة إيدك!

لم يجبها وانحنى قرب وجهها. رأي شفتيها منفرجتين قليلاً يزيد الضوء في امتلائهما، فوضع فمه عليهما. كانتا ناعمتين، وأحس برجفة ضئيلة فيهما. لم تتحرك، وأبقت ذراعيها تحت اللحاف. شم رائحة الصابون المعطر في وجهها ثم تملكته موجة دوار طفيفة. ضغط بفمه على فمها واحتواها بين ذراعيه ببعض العنف. كانت زوجته هي التي يقبلها ويعصر كتفيها ويشم رائحتها، وكانت رغبته فيها قوية عارمة. لم يعد الماضي موجوداً معهما الآن. أخرجت ذراعيها

واحتضنته بشدة دون كلام. قبل رقبتها الحارة وخديها وشعرها، وضمها بتشنج إلى صدره. كان سعيداً، لأن عالماً واحداً يضمه ويضمها، ولأنه لم يعد يشعر ماذا يعني أن مستقبلاً ما ينتظرهما.

نزع عنها جاكتة الصوف السوداء بيدين مرتجفتين، ثم ساعدها على خلع ثوبها. همست وهي ترفع ذراعيها:

- دبر بالك عيني على شعري.

كانت امرأة تحب له أن يجد شعرها مرتباً قبل أن ينام معها. كانت امرأته، ولم تخطر له بقية حقائق الحياة.

صرت الجرباية حين صعد عليها ليرتمي قرب سعدية. شعر بجسمها العاري ناعماً دافئاً؛ وكانت ساكنة تشد ذراعيها حوله. لم ير وجهها المدفون في رقبته، وأحس بأنفاسها الحارة وبلمس شفتيها على كتفه.

كان الضوء شاحباً أحمر تغلبه الظلمة، وكانت الظلال تشترك معهما في عملهما الفذ الفريد.

مرت عليه ساعة أو بعض ساعة وهو لا يزال راقداً على ظهره متمتعاً بالدفء وبالسكون المطبق. كانت أنفاس زوجته رتيبة لا تكاد تسمع؛ والظلام في الغرفة شفافاً يضفي على أثاثهم المتواضع ستاراً من الإبهام. ألفت عيناه الظلمة بعد أن اغتسل واطفأ اللمبة، وكان يتوقع نوماً عميقاً هرب منه، فبقي متمدداً في مكانه ونظره إلى السقف.

لم تكلمه سعدية ولم تقم من محلها واكتفت بارتداء ثيابها ثم اضطجعت وانتظمت أنفاسها بعد دقائق. لم تغتسل، وقد هم أن يذكرها بذلك وأن يلح عليها كما اعتاد أن يفعل، لكنه لم يقل شيئاً. وها هو، ولم تمض عليه غير ساعة، يدرك أنه ما سكت إلا لإحساسه بتغير جوهري طرأ على علاقتهما. لقد دخل عالمها فترة ما ثم خرج منه؛ فهل سيستطيع أن يدل على موضع العطب؟؟

كان الفراش دافئاً مريحاً وسكون الغرفة والعالم يبعث فيه طمأنينة من نوع خاص. لقد خرج إليها وعاد إلى نفسه. كان اتصالهما مغامرة مجهولة النتيجة، مثل أي اتصال بين امرأة ورجل، يسوده الشك كل لحظة في أن ينهار فجأة. وماذا يبقى لهما من بعد ذلك؟

مثلما هو الآن؛ راقد في فراشه الدافئ دون أمل، دون مشروع جديد. حتى الاتصال بها ثانية لا يريده الآن. لقد أخبروه ألا يرتجي مقدم طفل آخر منها. طفل آخر! ألم يكفه ما وضعه ذلك الطفل على كتفه من عبء مادي باهظ؟

لقد طارت دنانير سيد هاشم قبل أن يحس بملمسها؛ ولا تزال بعض الأشياء التي اشترتها زوجته لم تحل ربطتها ولم تخرج من قعر الصندوق. طفلهما! طفلهما! ماذا كانا سيعملان به؟ كيف يصوغان من قطعة اللحم تلك، إنساناً ذا حياة خصبة وشعور مرهف؟؟

إنها لم تسل عنه، عن وليدها. لم ترد أن تعرف أية هيئة كان وكيف اختنق وأين دفنوه. كان عندها القمة التي وصلت إليها أوجاعها، وكانت نهايته قد أظهرت عبث تلك الأوجاع بصورة لا تحتمل. ولكنه لا يتألم مثلها. إنه يقضي وقته في التفكير بالألم دون أن يعيشه. ألا يبدو هذا من حسن الحظ؟

إلا أنه يعلم جيداً مع ذلك أن وجوده في هذا العالم بالذات يضع في أعماقه بذرة شقاء لا تموت. انقلبت زوجته على جنبها ثم تنهدت تنهدة طويلة وسكنت. إنها تنام نوماً هادئاً. أليس عجيباً أن تبقى على قيد الحياة؟ وتذكر صراخها في تلك الليلة المريرة حين ذهب عنها تأثير المخدر. كان صوتها حاداً تشوبه بحة طعنت قلبه بصورة مفاجئة؛ وأدرك أنه يشرف على الجنون لأسباب يجهلها. واصطدم رأسه بالباب، فأنهى ذلك كل شيء. ولكن، ماذا كان يمكن أن يقع؟؟ هل في حواسه، أذنه وقلبه، طاقة تحطيم عقله؟

رأى صفحة السماء من فرجة صغيرة في أعلى الستارة، كانت

سوداء اللون سواداً براقاً. لو جن تلك الليلة لكانت نتيجة باهرة لحياته. إلا أنه لا يسأل نفسه، لم بعد كل شيء هذه الأزمات وهذا العذاب المعقد؟ هل يحب زوجته درجة ألا يجد شيئاً آخر مهماً من بعدها؟

كان ساكناً يتأمل نور النجمة الصغيرة التي جذبت عينيه خلال الفرجة. كانت تتألق وتخفق كالطفل في مكانها البعيد. تمنى لو كان بمقدوره أن يضيع بنظره في السماء كلها. ولكنه لو قام لاستيقظت زوجته ولذهبت هذه اللحظات التي لا وصف لها. لحظات نفسه ولحظات السماء. إنها واسعة هذه السماء، واسعة. هي تتسع ولا تتناهى؛ لأجل أن نضيع فيها، لأجل أن تغمرنا براحة الموت. لا أمل إذن منها؛ كما كان يرجو دائماً. لكنه لا يفكر جدياً بهذه القضايا؛ لقد شعر بذاته وهو مجرد من الإيمان، ولا يزال يستخف كل بكل إيمان بأشياء لا تحل أية مشكلة إنسانية. لقد كان باستطاعة ذوي الإيمان جميعاً أن يعيشوا ويموتوا دون إيمانهم. ألم يكن باستطاعتهم ذلك؟ وكانت النجمة الصغيرة، نابضة النور في سمائها العالية. شعر أنه يفكر دون أساس ثابت يبدأ منه. فقد لا يستطيع ألم الإنسان وشقاؤه وقبح عالمه أن ينفي، في النهاية، أتفه فكرة دينية. ولم ذلك؟ ألا يتألم البشر بدرجة كافية؟ وهل يشقون ويموتون لأجل غاية ما؟ هذا السؤال الخالد الذي لم يعد يحمل معنى.

أحس بالملل يساوره فحول نظره عن فسحة السماء البراقة. إنه لا يستطيع التفكير بعمق في مثل هذا النوع من المشاكل؛ فلا يكاد يبدأ حتى تلتوي الأمور وتتعقد الطريق ولا يبقى أمامه سوى النكوص. انقلب على جنبه الأيمن فاقترب وجهه من وجه زوجته. لا تزال نائمة بهدوء. كانت أنفاسها متصلة حارة ذات رائحة لم يستسغها. انقلب مرة أخرى مديراً ظهره إليها. إن هناك أمراً واحداً يستحق أن يفكر فيه. كيف نعيش في هذا العالم الذي ليس لنا، الذي لم نملكه

يوماً، لم نملكه لحظة؟؟ كيف نعيش لنموت آخر الأمر؟؟ وهل هناك، أمام الموت، حياة أفضل من الأخرى؟؟

نعم. أن تملك كل شيء، أن تعيش في قصر باذخ برفقة نساء جميلات وأن يمكنك.. هل هذا ضروري؟ أن تكون إنساناً شريفاً. وما معنى ذلك؟ إن الشرف لا يوقف آلام البشر، ولا حتى آلام فرد مفرد. ولكنك تستطيع أن ترفض هذا الألم بضمير مطمئن وأنت في فراش وثير دافئ وبين أحضانك امرأة ناضرة. ستكون آنذاك، رغم أنف الاخلاقيين، إنساناً شريفاً! يا للسخف!

ما هو الشرف عنده إذن، هو الذي عليه أن يعايش امرأة عمياء؟ هل يبقى، ليل نهار، يهتف بها أنه يرفض ألمها وعماها؟ ولكنه في نفس الوقت، يرفض تقديم الطعام لها أو مساعدتها على تنظيف جسمها! لعل هناك من يعمل هذا الشيء، أو يعمل أشياء أخرى من نوعه. وهم البشر المزيفون، لأن هذا هو التزييف الجوهري الوحيد في حياتنا. أن تزيف رد فعلك أمام ألم الآخرين.

وهو لا يقدر على الإتيان بعمل كهذا. لا يمكن أن يجد راحة حقيقية في عمل من هذا النوع. هل يجب إذن أن يتناسى فكرة الشرف؟ ولكنها هي نفسها فكرة الإخلاص، فكرة الانسجام. انسجامه الذاتي. وكل هذا يعني موقفاً معيناً من أزمة زوجته؛ من محنتها، من ألمها. وما هو ألمها؟ إنه عماها، وهو الذي يجب أن يشارك فيه. ولا فائدة من النظر إلى الأمور بغير هذه النظرة. إن المعيشة معها لا تعني شيئاً، لأن عليه أن يعيشها هي نفسها، ألمها.

انتبه على قلبه يدق بسرعة ولم يكن مرتاحاً في رقدته فانقلب على ظهره. تنفس ملء رئتيه مرتين أو ثلاثاً، ثم نظر نحو الستارة الباهتة اللون. تمنى أن يكون واقفاً بمفرده تحت السماء العريضة. إن أفكاره تتسع وتعمق كلما فكر وهو يتملى من السماء. ولكن زوجته قد تستيقظ قبل أن يصل النافذة. إن فكرته عنها لم تخطر له من قبل

بهذا الوضوح. أن يعيش ألمها، وماذا في الإنسان غير ألمه؟ وسيعمى معها لأجل أن ترى بنوره. إن هذه الفكرة قد تنقذه لو أمكنه.. لو أمكنه أن يعيشها.

أغمض عينيه فترة، وعجب كيف لا يواتيه النوم رغم المجهود الذي بذله. ولكن، هل سيستطيع الصمود؟ وما هي النتائج؟ لم يدر بماذا يجيب نفسه، وهل يجب أن يجد جواباً، وانقلب على جنبه مديراً ظهره إلى زوجته. لم يكن متحمساً ولا هادئاً، وأحس بقلق بسيط يساوره حين تذكر ما يملك من نقود... ثم أخذه النوم.

(٤)

شعر بسرور حين رأى وجه عبيد يشع بفرح بليد وهو يغلق خلفه باب المحاسب. كانت الابتسامة تجر طرفي فمه وعيناه غارقتين في اللحم المحروق. سأله:

- ها، عبيد، قبضت؟

فضحك عبيد وهو يتحسس جيوبه بحركات لا معنى لها:

- أي والله يا عمي يا بو جاسم.

ثم سكن فجأة وغابت الفرحة عن ملامحه وأردف:

- ما منهن خير. كل قران، على كولتهم، إله مجان.

فتركه داخلاً في غرفة المحاسب. سيقوم بنفس العملية التي تتكرر كل شهر. يوقع ثم يحصي الدنانير الموضوعة بعناية في كيس ورقي كتب عليه اسم «محمد جعفر - الأوراق» ثم يمضي مثل البقية. ولم يكن يعلم أتراود نفوس الموظفين مثل تلك الدقائق من الغبطة قبل أن يقبضوا رواتبهم، أم لا؟ ولكنه كان يحس بمقدار ضعفه وهو يهدهد هذه الغبطة التي لن تدوم طويلاً.

أغلق باب المحاسب خلفه، هو أيضاً، وسار إلى غرفتهم. كان الدهليز مظلماً في هذا اليوم الغائم، لا تضيئه غير ارتماءات النور من الشبابيك الصغيرة العالية؛ وكانت المصابيح الكهربائية في غرفتهم تبدو أشد حمرة من أي وقت مضى. لم يجد أبا خليل في مكانه، فدق الجرس وطلب شاياً.

لم تنقص من غبطته الغامضة التي فارت من أعماقه هذا الصباح،

رؤيته للأوراق والأضابير متكومة بإهمال على مكتبه. بقي يتأملها منساقاً مع لذة سرية لا سبب لها. كان الضوء المنصب من الكوة حليبياً داكناً يشبه لون الغيوم؛ ولم يكن يصل صفحة منضدته، بل سرعان ما يذوب في حمرة المصابيح البلهاء. ولم يكن باستطاعته أن يرى الغيوم خلال الكوة الزجاجية المغلقة من أعلى؛ ولكم سره منظرها في الصباح وهي تسرع على صفحة السماء. لم يجد في نفسه، وهو يغرق في الفضاء الضيق أمامه، دافعاً لتنظيم راتبه وإحصاء الديون على الورق. ماذا يعني، أمام الصباح المشرق والغيوم، أن يعلم أنه لا يملك فلساً واحداً من راتبه؟

فتح الباب بعنف ودخل أبو خليل والسيجارة في فمه، فسار مسرعاً وجلس إلى مكتبه. كانت لحيته طويلة بعض الشيء تزيد في تعميق تجاعيد وجهه السمراء. بدأ بتقليب إضبارة أمامه دون أن يكلم محمد جعفر، ثم أخرج منديله المكور ومسح أنفه وهو لا يزال يتظاهر بانكفائه على الأوراق.

لبث يتطلع إليه. لقد قضى أيامه هكذا. إذ جاءته متعة تلقفها وإن لم تأته كان ذلك لنقص فيها. ويبدو أنه لا يشعر أنه عليه آخر الأمر أن يوجه حياته. ليس في أيامه، التي لا لون لها، ما يجعله مضطراً للتصميم على أمر عظيم يفعله. إنه إنسان يعيش، ويظهر أن في طبيعة مشاكله أن تحل دون تدخل منه. ولكن، أمن الممكن هذا؟ هل بمقدور الإنسان أن يضع نفسه على الرف أمام العالم وأمام الآخرين؟

رآه يرفع رأسه ويوجه الحديث إليه:

– صافن أبو جاسم. خير إنشالله. يبين أكو كمبيالات هالشهر عليك؟

أزعجه انقطاع حالته النفسية. لم يجب أبا خليل أول الأمر وتنحنح قبل أن يتكلم:

– أي والله أبو خليل. علي كمبيالتين مستحقة رأس الشهر.

اخرج أبو خليل سيجارة أخرى:

– ألمن؟ أخاف لهذا السيد الملعون الوالدين؟

– اي. أكو غيره؟

– الله يكصف عمره.

شعر أن أبا خليل قال كلماته الأخيرة بإخلاص. لعله يتمنى حقيقة أن يموت سيد هاشم لأجل أن ينزاح عن كاهله هو عبء دينه الثقيل. أثره هذا العطف السلبي. قال:

– ما يكدر عليه.

كان أبو خليل يقح ويبصق خلف المكتب:

– كل لي، هذا السيد متزوج مو؟ أخذ ابنية صغيرة؟

– إي. اسمها سليمة. تزوجها كبل شهرين. نطى أمها أربعين دينار وأخذها.

فأخرج أبو خليل كفيته بانفعال وهتف:

– ملعون الوالدين. ما يندره عنده حيل لو واكع فد نوب. هيا كلب يا إبن الكلب.

ضحكا معاً. أردف هو بعد صمت قصير:

– إحنا نعرف مرته قبل ما يتزوجها. ذاك الشهر اترجيناها كالت له يأجل فلوس الكمبيالة المستحقة، فهو أجلها حسب الأصول، لاكت هالشهر توالمت.

فاستغرب أبو خليل:

– عجايب! بيها قوة لازم هالصغيرة. حلوة يمكن. جربوا وياها هالشهر والله كريم.

ثم ضغط على زر الجرس قربه وعاد إلى أوراقه.

لم يجبه. لماذا يتحدث هكذا عن سليمة وعن حياته هناك؟ لم يقول

نعرف سليمة ولا يقولها صراحة.. أعرفها؟ تلك المخلوقة الصغيرة الغامضة؟

رأى عبيد يدخل حاملاً قدح شاي وضعه أمامه، ثم سمع أبا خليل يتحدث مع عبيد ولم يفهم كلامهما. تناول شايه وأخذ يتأمل السائل الأحمر المضيء. تزوجها ذلك السيد الاعمى ذو العظام، تزوجها بصورة واقعية ونقلها إلى غرفته لتشاركه فراشه. تلك الفتاة الصغيرة ذات الأسرار، إنه لا يعرف ما تكن له، فهي تطيل مكوثها معهما، معه ومع زوجته العمياء، دون أن تتحدث إلا قليلاً. تبقى جالسة على الكرسي قرب المنقلة التي تجلبها معها من الأسفل، وهي تنظر إليه بعينين سوداوين تخفيان سراً مكتوماً. وكان يلاحظ التغير الذي تطبعه حياتها الزوجية على ملامح وجهها وعلى جسمها. هذا التفتح الشاذ للحياة المتبدي في نظراتها العميقة وفي السمنة البسيطة في صدرها وردفيها، أليس عجيباً أن يكون نتيجة لفراش السيد النتن؟ وشفتاها اللتان امتلأتا وازداد احمرارهما، وخصلات شعرها القصير المضطرب دائماً، إنها الحياة الفائرة هي التي تجذبه وتلفت نظره فيها. ثم خطرت الفكرة لزوجته أثناء ما كان يشاركها حساب مصاريفهم وديونهم. كانت تحس رغم عماها بشيء خفي في الجو بينه وبين سليمة. أخبرته أن باستطاعة سليمة أن تطلب من السيد زوجها تأجيل دفع الكمبيالة التي تستحق عليهم بعد أيام؛ ولم يدر بأي شيء يعلق على اقتراحها هذا، وبقي يتأملها، بعد ليلة أو ليلتين، وهي تشرح الأمر لسليمة. كان ضوء المصباح الكهربائي قوياً، يسقط على وجه زوجته الأصفر من الأعلى؛ وكانت بعض عضلات وجهها تتقلص وتمتد أثناء كلامها، وجفنا عينيها الذابلتين يتحركان بسرعة أثارت اشمئزازه. وكانت سليمة تنظر إليه بعينين صافيتين وقد وضعت إحدى قدميها فوق حافة المنقلة فانكشف له قسم أبيض من أعلى ساقها، ولم يبد عليها أنها كانت تنصت إلى زوجته. ثم سألته بعد فترة سكون:

– شنو كمبيالة؟؟

ولم يصدق نبرة الإخلاص في صوتها. ولكن عينيها السوداوين الهادئتين حتى الجمود، نفتا عنه كل شك. كانت مجرد طفلة فتح أمامها على حين غرة منفذ إلى عالم غريب القيم. وفرحت بصورة لم يتوقعها حين أمسكت بالمعنى الذي يختفي وراء وجود الكمبيالات لدى زوجها ورهنه للذهب. وكان في أسئلتها التي انهالت عليه بعد ذلك طابع واحد هو رغبتها الملحة في أن تعلم أن باستطاعتها تقديم خدمة ما، مهما تكن، إليه... إليه بالذات. ولم يدرك لم أدخل موقفها الغامض هذا، سروراً وحشياً إلى نفسه. وعرف بعد ذلك أنها تخاصمت مع السيد وهجرته ليلتين متعاقبتين قبل أن يرضخ لإرادتها. وكان السرور الوحشي يؤلم قلبه.

كان الاستكان بين أصابعه فارغاً يكشف بؤسه للعيان، وكان خط المنضدة من وراء زجاجه العكر يبدو متلاشياً مع أرض الغرفة الدكناء. لم يكن أبو خليل في محله، وكانت الغرفة خالية موحشة. سمع وقع خطوات في الدهليز المجاور، تخافت رويداً رويداً ثم انقطع. كان يحس بحاجة إلى الجمود، إلى موت مؤقت يزيل عنه هذا الإرهاق التعيس الذي يفترسه. لم يكن أمراً محتملاً أن يلبث هكذا في عمل دائم ومحاولات مستمرة لأجل لا شيء. ولقد بدأ يتأكد أخيراً أن كل شيء يفلت من بين أصابعه، وأن أعماله كتابة مضطربة على صفحة الماء.

ولم يكن يفهم ماذا يعني ذلك. لعل باستطاعته أن يصبر، أن يقاوم؛ وكان هذا عنصراً آخر لا يفهم. إن في أساس تكوينه، الآن، أن يعلم إلى أين سينتهي كل شيء. وهكذا بدأ عذابه الحقيقي. أين سينتهي كل شيء؟؟

إن حياة الإنسان أمام الموت سخف لا معنى له، وهي بدونه مأساة مريعة لا يطاق التفكير فيها. وبالنسبة إليه لم يعد يطيق تفكيراً

طويلاً في حياته. صار يشعر انه يتلاشى بسرعة حين يبدأ انغماساته الذهنية. إن كل المتع تفوته دون أن يعلم السبب. ولا يلبث أن يحس بنفسه منكمشاً في زاوية مظلمة رغم شوقه القوي إلى النور. ولكنه أراد ذلك يوماً ما، أراده بالتأكيد. ولقد أغرق نفسه في هذا الالتزام المظلم الأسود، لأنه شعر بقلق على الوتر الإنساني في صميم ذاته. لعل التضحية كبيرة، ولكن مرارتها تزداد حين يجد ألا نتائج طيبة في تشبثه العنيد بنفسه. رأى يده ممسكة بريشة الكتابة وهي تطعن بها ورق النشاف الأبيض أمامه فتحدث فيه ثقوباً متجاورة. كان الاستكان على بعد قليل منه، موضوعاً بإهمال. إن هذا لا ينتظر شيئاً، وهو لذلك لا يملك نفساً إنسانية. كانت في قعر الاستكان بقية من السائل الأحمر، تعكس أضواء الكوة الغامقة. لعل من الأفق ألا نكون بشراً؛ لأجل ألا نتعذب أو نقلق أو نلتزم. ولكن، هل من حقه أن يفكر هكذا؟؟ لقد صدر الحكم في غيابنا، ولم تترك لنا سوى الحياة. ويبدو أن البحث عن العدالة خارج عن هذا الموضوع.

فتح الباب قليلاً ثم أغلق دون أن يدخل أحد. سمع عبيد يتكلم مع شخص آخر، فدق الجرس يطلبه. مضى بعض الوقت ولم يلب عبيد نداءه، ثم سمعه يقوم من الكرسي، وابتعدت خطواته. لم يشعر بحنق أو غضب منه. كانت الغرفة ساكنة داكنة الضوء، وصفوف الأضابير متعالية حتى السقف؛ وكان وحيداً غير متماسك، لا يحس بأية رغبة في العمل وفي وضع أجوبة لأسئلة حياته.

بدأت المشادة بينهما أول دخوله إلى الغرفة. ميزت زوجته حركاته وعرفته، فجابهته سائلة ببعض الحدة:

- أخذت معاشك؟؟

فهمهم بالإيجاب ورمى مجلته على المائدة الفارغة. كان جائعاً متعباً ضجراً. قالت بعد قليل:

- يا لله تعال نتحاسب.

كانت جالسة على طرف السرير، واضعة يديها في حجرها. لم ينظر إلى وجهها، وأجابها:

– خلي دناكل.

فهتفت:

– شناكل؟ هذوله بعد ساعتين ما يخلصون الطبخ. البريمز خربان من الصبح.

كانت عيناها طامستين في حفرة رأسها، وعظام خديها البارزة تزيد في صفرة وجهها النحيل.

سألها ببلاهة:

– شنو؟

فأخذت تفرك أصابعها ببعضها:

– أكولك البريمز خربان مال بيت أم سليم. خربان، ماذا تفتهم؟؟

لم يجبها، ماذا يمكن أن يعمل، إذا كان ما تقوله صحيحاً؟ لقد حيره تدبير الطعام لهما منذ أشهر، ولم تستقر بهما الحال إلا بعد أن عرضت عليه أم سليم تقديم وجبتي الغذاء والعشاء لهما مقابل سبعة دنانير شهرياً. سمع زوجته:

– بعدك هنا؟ وين رحت؟

– ما رحت. بعدني هنا.

كان صوته أجش عميقاً. استمرت في كلامها:

– تعال نتحاسب. أكو علينا كمبيالات هالشهر؟

– إي.

– إلمن؟ للسيد رجل سليمة؟ زين. ما ننطي. خلي يروح يشتكي. خلي يروح وين ميريد. ما ننطيهياه.

كانت الكلمات تنقذف من فمها بسرعة، وعضلات وجهها وبقايا

عينيها تتشنج وتتقلص مع كلامها. لم يرها على هذه الحال من قبل. سألها.

– شنو يعني؟

فصاحت:

– يعني ما ننطي ولا فلس. ما يستحي ولا عنده غيرة. ليش الذهب مرهون عنده لو هو يخلي مرته تلبسه؟ سليمة خانم، آخر زمان. خلصوا الأودام عيني.

وكانت تشير بأصابعها مؤيدة أقوالها بحركات شاذة لم يرها منها قبلاً. سألها وهو يحس بأعصابه يفارقها الهدوء:

– على كيفج. منو كال سليمة دتلبس الذهب؟

كانت تنظر إلى الأرض وهي تصرخ:

– كل الناس يدرون. كل الناس ديحجون بيها. بس آني الخايبة، الله ما ديفرجها علي.

ثم بدأت بنشيج طويل أعقبته نوبة من البكاء. كانت تضرب وجهها وصدغها بكلتا راحتيها، ثم تدق على صدرها بجمع يدها اليسرى. وكان صوتها الموحش والدمع السائل من حفرتي عينيها يبثان رعباً غير مألوف في قلبه. من هي هذه المخلوقة القبيحة؟

إنها لا تمت إلى البشر بشيء، إلى البشر الذين يعايشهم ويحبهم ويريد أن يشاركهم أزماتهم. أهي زوجته حقاً؟ تلك التي منحها ماء حياته ووجد فيها سروراً لا حدود له؟

كانت تجر شعرها المدهون المشط، بحركات جنونية متقطعة؛ وكان صراخها مبحوحاً يعلو فجأة ثم ينخفض. وقف مصعوقاً في محله قرب الباب. لم يدرك كنه هذه الحقيقة التي يراها أمامه، وكان بوده أن يطلب منها السكوت؛ لماذا يجب أن تصرخ هكذا؟؟

ولمح الباب ينفتح بغتة. أحس بحركته فالتفت إليه؛ وكانت هي

هناك . . سليمة، تنظر عبره بعينيها السوداوين المندهشتين بشدة. لم تكن تضع إلا حمرة خفيفة في الشفتين الممتلئتين، وكانت خصلات شعرها المضطرب تغطي قسماً من جبينها. أدارت نظرها إليه متسائلة وعلى وجهها ظل من الخوف. لم يقل لها شيئاً، وانتبه إلى صينية الغذاء في يديها. تقدم بسرعة وتناولها منها ثم أشار إليها برأسه أن تذهب. ورأى قبل أن تغلق الباب تلك القطعة الشمعية من صدرها ظاهرة خللا فتحة الثوب الواسعة. كل شيء يمر بعيداً عن متناول يديه. لقد أخرج من المجرى مرة واحدة، ولم يجد الوقت ليتحسر. ومن يدري، فلعل الحسرة لم تكن لتغير، آخر الأمر، من منحرف الطريق. ماذا يعني إذن أن هناك أشخاصاً آخرين معه، يهمه أن يزيد من معرفته بهم حتى ولو بذل من دمه في سبيل ذلك؟؟

كانت مستمرة على بكائها وعلى فرك يديها ببعضهما. راقبها وهو لما يزل حاملاً صينية الغذاء. كانت تلك الحركات منها تؤلمه إلى أقصى حد. تمسك أصابع يدها اليمنى براحتها اليسرى ثم تعصرها بشدة فتنزلق تلك الراحة لتتشبث أصابع يدها اليسرى براحتها اليمنى فتخنقها بينها. . ثم، وكانت أنفاسه تتسارع كلما طال وقت مراقبته لها. إنها تعبر عن عالمها المحدود بهذه الحركات اللولبية المريعة، إنها تدخله في دنياها الموحشة، إنها تجذبه ليعمى معها. وصرخ بها:

– بس عاد تفركين ايديج. مخبلة إنت؟ سكتي. لا تصيحين. لويش هالبجه؟ تريدين تخبليني وياج؟؟

ثم أسقط الصينية بعنف على المائدة، واستدار يتمشى خلال الغرفة. هتف بعد لحظات:

– لويش هالفصل كله؟ أريد أفتهم لويش؟ لا تفركين إيديج أكلج. الناس خدامنا؟ يطبخون لنا ويداروج ويغسلون الهدوم، وأنت ملتهية تعقبين منو ديلبس الذهب مالج.

عادت إلى فرك أصابعها ويديها وبدأت تقول بصوت مرتجف أجش:

– سليمة دتلبس الذهب مالي. رجلها السيد دينطي ألها. دتلبس الذهب. أم علي الكردية كالت لي.. سليمة دتلبس الذهب مالي. احنا رهناه لو بعناه؟؟ إحنا رهناه.

كانت تتكلم بصورة آلية رتيبة أذهلته؛ وقف يراقبها وهو يحس ألماً شديداً يمسكه. وكانت هي مستمرة في نوبتها:

– أم علي الكردية تكول سليمة تلبس الذهب مالي. هو السيد دينطيهياه. سليمة دتلبس الذهب مالي. لويش؟ إحنا رهناه لو بعناه؟ لاع، إحنا رهناه. لويش لعد سليمة تلبس الذهب مالي؟؟

والدموع لا تزال تضيء حول فمها المتقلص وفوق خديها الأصفرين. كانت هذه المخلوقة يوماً ما تسعده وتبهج عالمه؛ وكانت فرحة تهب منها رائحة الربيع؛ وكانت جميلة دافئة تستطيع أن تضحك وأن تعبث وأن تحب. كانت زوجته، وكان يريد، مشغوفاً، أن يحيا معها وأن يعيش سعادتها. لم يكن فيها كل هذا القبح والغباوة الحيوانية والضياع. إنها تؤلمه، تؤلمه.

كانت ساكنة منحنية بوجهها نحو الأرض، وشعرها اللماع منكوشاً من جوانبه. رأى عظمة بارزة في إحدى كتفيها. خيل إليه أنه يراها للمرة الأولى. لم يألف فيها منذ الزمن البعيد، غير النعومة والامتلاء؛ وكان ذلك شبابها، حياتها. ولكنها الآن أمامه عجوز أغلق عالمها، ولا يبدو أن في إمكانه، في إمكان أي إنسان آخر، أن يطل على هذا العالم أو أن يعيش ديمومته.

رفعت يدها بهدوء وعصرت أنفها ثم مسحت مخاطها بطرف الثوب الأسود. راقب حركة يدها البطيئة والسائل اللامع الذي لوث الثوب وجانب أنفها. لم تتبدل تقاطيع وجهها إلا قليلاً، لكنها فقدت شيئاً ما، شيئاً مجهولاً كان هو كل شيء. وأحس بغموض أن

له علاقة بهذه التقاطيع التي تموت. هل كان هو نفسه، شخصه، ما أضاعته هذه الملامح؟ وهل اخطأ، كان مخطئاً منذ البداية؟

سمعها تتأوه. كانت ضجة الغذاء خافتة في الطابق الأسفل وأشعة الشمس تنفذ خلال قماش الستائر الأحمر. لفت نظره البخار المتصاعد من صحن الفاصوليا، فتذكر غداءهم الذي لم يمسوه.

قال لها:

- كومي أكلي.

وكان صوته خشناً بصورة لم يتوقعها. أمسكت بحافة السرير ثم قامت واتجهت في تهجسها المستمر إلى المنضدة. كانت نحيلة منخفضة الصدر، لا يظهر عليها أنها تملك قوة للسير طويلاً. وصلت المائدة وتشبثت بكرسيهم العتيق ثم سحبته وجلست عليه. تأملها لحظات. كانت عروق يدها زرقاء نافرة وفي أناملها رجفة متصلة لا تكاد ترى. ماذا يعني أن يعيد ذلك السؤال المرير - أهي نفسها زوجته؟ لقد قيلت الكلمة، وبقي أن نستطيع معرفة ذلك.

كانت ممسكة بالملعقة، ورآها ترفع بتخبط مؤلم قسماً من الفاصوليا إلى فمها فتتذوقها. وتحركت حنجرتها ثم سكنت، وسمع صوتها الأجوف:

- خيست بطننا من الفاصوليا.

وعادت، في تخبطها، ترفع التمن إلى فمها الملوث ببقايا المرق.

لم يحس رغبة في تذوق ذلك الطعام، وأبعد عينيه عنها، شاعراً بمزيج من القلق والغثيان يموجان في أعماقه.

كان ينتظرها منذ ساعة وبعض الساعة، جالساً على الكرسي الخشبي أمام الباب المفتوح وهو يقرأ في مجلة قديمة. نادى عليها زوجها منذ وقت غير قصير. لكنها لم تجبه. خيل إليه أنها تتباطأ في صعودها إلى غرفة نومهما؛ وكان يتمنى لو ألح السيد في ندائه عليها،

إلا أن مانعاً غامضاً أسكت السيد المتوحد وأبقاه صامتاً في حجرته، وحجرتها، ذات الضوء الباهت.

لم يعرف بالضبط السبب الذي جعله يصمم على محادثتها حديثاً ما، أثناء تجواله الممل عصر اليوم في شارع الرشيد. كانت تملك عنصراً يمت بعلاقة مبهمة إلى وضعه النفسي، وكان يجد في الحديث معها تواصلاً بين عالميهما لا يمكن التكهن بنتائجه. إلا أنه لم يستطع البت في حقيقة أفكاره عنها، وهل هي كل شيء وكل ما يعتقده، أم أن في نفسه أمراً يتخافى عنه ويفتش عن منفذ في أعماله هو؟؟

وأخبر زوجته، قبيل خروجه، أنه سيحاول أن يقنع سيد هاشم بتأجيل دفع الكمبيالتين المستحقتين عليه هذا الشهر. لم يقل لها كيف سيحاول ذلك وبأية وسيلة؛ وكان يكلمها بلهجة حازمة لم تدع لها طريقاً للمناقشة أو البكاء.

سمع باباً يصفق في الطابق الأسفل فأرهف أذنيه. كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف، ولم تعتد سليمة البقاء في غرفة أهلها حتى هذا الوقت. كان قد عاد بعيد مغيب الشمس، أثناء ما كانوا يتعشون، فوجد زوجته جالسة على القريولة وصحني الطعام فوق المائدة. كان الضوء ضعيفاً وجو الغرفة ثقيلاً لا يحتمل. نبهها إلى الأكل فقامت بحركاتها الآلية إليه وازدردت بضع لقيمات منه. لم ينظر إليها. كان واقفاً أمام الباب المفتوح يستنشق نسائم المساء الندية. أمطرت السماء أثناء ما كان يطوف الشارع مطراً غزيراً مفاجئاً. إلا أن الغيوم السوداء تسرع الآن نحو المشرق. سمع خطوات السيد وهو يصعد السلم ثم مر أمامه يضرب الأرض بعصاه. ولم يلبث إلا دقائق في غرفته حتى بدأت مهزلة النداءات الطويلة على سليمة. سمع زوجته تطلب منه مرافقتها إلى المرحاض، فتراجع من وقفته وأمسك برسغها دون كلام ثم خرجا إلى ناحية منعزلة مفتوحة من الطارمة. لم يحس ألماً أو اشمئزازاً وهو يجر هذه المخلوقة المتعثرة من

الرسغ اليابس إلى حيث تفرغ محتويات أحشائها. كانت أعماقه تخنق مشاعر محرقة لا تطاق، ولم يكن يحاول أن يعمل شيئاً تجاهها. أهو اليأس المطبق، أم النبل الفارغ الذي قد يخفي طاقة لتدميره وتدمير عالمه؟

فتحت حنفية في الطابق الأسفل وسمع الماء يتساقط منها، فأرهف أذنيه مرة أخرى. كان هناك شخص ما يغتسل. لعلها هي وقد أنهت طعامها. كانت أنفاس زوجته النائمة ترتفع كلما انقطع صوت الماء. نظر إليها متمددة على السرير دون حراك. كان فمها مغلقاً ونقرتا عينيها مظلمتين. رأى خيطاً من اللعاب يلمع عند طرف فمها، فخطر له أن ذلك علامة على مرض ما لا يتذكر اسمه. نامت إثر الأكل مباشرة بعد أن مسحت فمها ويديها بمنديل مبلل. لم يجد أي سبب ليطلب منها البقاء مستيقظة؛ وراقبها من طرف خفي وهي تسحب اللحاف ببطء على جسمها ثم تغرق في النوم بعد دقائق.

انتبه إلى وقع أقدام خفيفة على السلم فقام من مكانه ووقف في طار الباب. انكشفت له صفحة السماء الصاحية المليئة بالنجوم واحتوته برودة الجو. اقترب إيقاع الأقدام من محله، ثم برزت سليمة من ظلام السلم. رأى عينيها أول الأمر، ورأى ترددها القصير حين وجدته ينتظرها. كانت ثيابها مائلة إلى البياض وفتحة صدرها عريضة. وقفت برهة أمامه وفي عينيها اللامعتين سؤال مبهم. كانت تحمل كأس ماء وشعرها مضطرباً غير ممشط. رآها تمر بلسانها على شفتها السفلى. همس:

– أريد أشوفج.

فهزت رأسها واستمرت تسير ببطء إلى غرفتهم.

كان جسمها ضئيلاً فيه امتلاء غير متوقع. بقي واقفاً في مكانه يراقبها وقد شعر بازدياد في دقات قلبه فأخذ يتنفس بسرعة. رآها

تفتح الباب فيبرز الضوء انحناءات جسدها واضطراب شعرها، ثم طرقت أذنيه همهمات من السيد قطعتها نعومة صوتها:

– ما سمعت. أمي جانت...

وأغلقت الباب خلفها واختلطت همساتهما مع بعضهما.

إنهما ذكر وانثى يجتمعان فوق سرير واحد؛ وسيمضي الليل عليهما كاتماً السر المفضوح السخيف الذي يربط بينهما. عروسان حقاً. تلك المجموعة من العظام الصدئة التي يدعونها سيد هاشم تضم كل هذه الليونة والبضاضة والفتوة. ألا يتضمن هذا الوضع في أساسه جريمة لا عقاب عليها؟ ولكن منتصف الليل يبتلع كل شيء، حتى الجرائم الكبرى.

كانت السماء فسيحة واسعة تتلامع عليها النجوم، ونسمات من الهواء الرطيب تمر على وجهه بين هنيهة وأخرى. وكانت الدار هامدة لا حركة فيها غير تلك الأصوات الغامضة التي تأتي من غرفتها. ماذا يعملان؟ ماذا يعمل بها، عليه اللعنة؟؟ وكان السكون ناشراً جناحيه على الكون. هناك لحظات صمت رهيبة تتفق الأشياء كلها لتحقيقها؛ حتى النجوم تنتفض بهدوء لئلا تقطع هذا الصمت. رأى خيالهما على الستارة الصفراء وهما يتحركان داخل الغرفة. إن وجودها معه يجب أن يرفض رفضاً باتاً، لأن ذلك يزيد من شقاء العالم. وانفتح الباب بغتة، ثم انفلتت سليمة من فيض النور مقبلة نحوه بخطوات لينة.

لم يصدق عينيه. لقد أوقفت الجريمة، وليس هنالك من يستطيع أن يضمن تكرارها. ولم يفهم حركة يدها مشيرة إليه أن يتبعها إلى الطارمة القريبة، حتى أحس بأصابعها الحارة تسحب يده، فسار خلفها نحو الظلام.

لم يكن هادئاً وهو ينظر إلى ما يبين من شعرها وظهرها؛ وكان يحس تخاذلاً بسيطاً في رجليه وحرارة غير اعتيادية تسري خلال

جسمه. دلفت نحو زاوية على اليمين وواجهته حين تبعها. رأى بريق عينيها وسمعها تهمس بصوت رقيق:

- كلت له رايحة... رايحة.

وأشارت باتجاه المرحاض القريب. لم يجبها ووقف يبلل شفتيه شاعراً بازدياد حرارته. كان تفكيره متوقفاً، لا يتبع سلسلة الأعمال الآلية التي يقوم بها. وكان لا يزال مذهولاً منذ أول خروجها إليه من غرفتهم. هل كان يستبعد ذلك؟ أم كان يائساً منه بصورة نهائية؟

مسح جبينه المبلل براحة يده. وبقي يبادلها النظر بسكون. كانت ساكتة في تطلعها إليه؛ ولم يكن يرى منها غير عينيها واستدارة وجهها الشاحب وصفحة رقبتها. سألها:

- شيريد؟؟

فأمرت يدها على شعرها:

- شمدريني.

ثم أردفت:

- شبيها سعدية اليوم؟؟

أزعجه ذكرها لاسم زوجته:

- ما أدري. أنت دتلبسين الذهب مالها؟؟

فأجابت بسرعة:

- لاع. لويش؟ يا ذهب؟

ثم أخفضت رأسها نحو الأرض. هل تحاول أن تكذب عليه؟

كان يراها بوضوح كاف تحت ضوء النجوم وهي تمسح رقبتها وصدرها بحركات بطيئة. وماذا يعني ذلك؟ أليس من حقها أن تتزين؟

شم رائحة عطرة، أتته لحظة ثم جرفتها نسائم الليل الباردة. ما أسخف سؤاله عن الذهب. سألها برقة لم يتوقعها:

- خالة ريحة؟

فلم ترفع رأسها واهتزت خصلات شعرها قليلاً وهو يسمعها تضحك ضحكة قصيرة. بقي ينظر إليها. تملكه الحنين لضمها بين ذراعيه بقوة ولاستنشاق عطرها الغامض. وفي هذا الليل المضيء، لن تكون جريمة أن تمتزج حرارة جسميهما لتطفئ شوقه ولتبعث في نفسه راحة لا سبيل لها في وحشته الحاضرة. كانت على بعد خطوة منه، فاقترب منها. خيل إليه أنه يرى ارتفاعي نهديها يبدوان لحظة ثم يختفيان، وكانت خصلاتها ثابتة فوق الجبين الشاحب. وخيل إليه... ولكنه رأى ذراعه تمتد إلى يدها الموضوعة على صفحة رقبتها وتمسك بها. ماذا جرى لها؟ لم ترفع وجهها واستسلمت أصابعها الدقيقة إليه. همس:

- شوفي، سليمة.

وكانت نبضات قلبه تهز أحشاءه وتطرق رأسه بعنف. أحس بيدها لزجة ناعمة بين أصابعه. همس مرة أخرى:

- شوفي، سليمة. تروحين للسينما؟

أنزلت يدها إلى الأسفل ثم رفعت رأسها موجهة نظرها بعيداً عنه؛ ولبثت ساكنة وقبضته تحتوي يدها. كان محدقاً في الملامح الرقيقة الشفافة التي تظهر له خلال الظلام الخفيف؛ وكان ينتظر كلمة منها، همسة لا معنى لها، وتعاد إليه الحياة من طريق مغلق. لماذا لم يخطر له كل هذا من قبل؟

إلا أنها لا تجيب، لا تجيب. وكانت اللذة الغريبة المذاق التي تبعثها يده فيه، تزيد من سرعة أنفاسه ودقات قلبه. بلل شفتيه اليابستين، ثم قال مقرباً وجهه منها:

– أكو خوش رواية هالسبوع . إذا تريدين ، نروح بمال العصر .

وأراد أن يهتف بها أن أحداً لن يراهما لو تدبرا الأمر؛ وأنها يجب أن تعلم ماذا يعني هذا الطلب منها لديه؛ وكان مضطرباً بعض الشيء جاف الفم. هل يمكن أن تفهم؟

وأحس بها تبتعد قليلاً عنه، إلا أنها لم تحاول أن تسحب يدها، وكانت ساكنة وديعة. بعث فيه هدوؤها شعوراً بأنها تميل إلى كل ما يحدثها عنه. وأنها قد... قد تدرك أن نفسيهما تتشابهان، وأن مصيرها متصل به. وكان شحوبها ممزوجاً بصفرة فضية، وعيناها تعكسان بريق النجوم. التفتت ببطء ورفعت نظرها اللامع إليه لحظة، ثم عادت إلى ابتعادها.

مد يده وأمسك كتفها اليسرى برفق. أحس برجفة تنتابها وأنزلت الكتف الناعمة، إلا أنه تشبث بها وسحبها قليلاً لتستدير نحوه. وعادت إليه عيناها، بحيرتان سوداوان ملتهبتان، فهمس:

– ما تكدرين سليمة؟؟ ها، عيني؟؟ جاوبيني. ليش ماداتحجين؟؟

كان يتوسل أمام عينيها وأمام فمها ووجنتيها، أمام الحياة التي تهرب منه؛ وكان يشعر بذلة تعصر قلبه. رأى شفتيها تتحركان وسمعها تجيبه:

– ما أدري. أخاف من أمي.

فضغط على كتفها:

– شنو؟؟

فأدرات رأسها عنه وكررت:

– أكولك أخاف من أمي. إذا حست بي...

وقطعت كلامها. شعر بها تحاول أن تخلص أصابعها من يده، فشدد قبضته عليها. هذه الطفلة! هذه الطفلة! لماذا لا يزال يأمل في أن تفهم ذلك الشيء، ذلك الشيء المبهم الذي يربط بينهما؟ كان شعرها

مضطرباً وخصلاته تتهدل على رقبتها وقسم من وجهها وجبينها، وكانت عظام كتفها ملساء لا تخفي طراوة اللحم الذي يغطيها. حملت إليه نسمة خفيفة نفحة من عطرها، فاستنشقها بقوة. أحس بنشوة غامضة تملأ صدره مع الهواء البارد المعطر. همس:

- سليمة.

وتوقف قليلاً ينصت إلى الاسم الذي فاه به:

- لازم نطلع سوا. لازم تكدرين. ليش ما تكدرين؟؟ لويش تخافين من أمج؟؟

بقيت جامدة ساكنة كأنها لم تسمع شيئاً. خطر له بغتة، وهو يحس حرارة يدها وليونة كتفها، أنها قد لا تمانع لو حاول أن يتصل بها الآن، في نفس هذا المكان. لا يعلم كيف واتاه هذا الخاطر. كان في وقفتها وفي الظلام الذي يحيطها والعطر المنبعث منها. ما يوحي بمثل فكرته. لعلها ستتبين في آخر الآمر أنها كانت تضمر له، دون علمها، حباً عظيماً لا مثيل له.

ترك يدها وأمسك بذراعها فاستشعر برودة اللحم اللين. كانت تلبس ثوباً فاتح الزرقة يكشف عن ذراعيها حتى الكتف وعن رقبتها وأعلى صدرها. أراد أن يدير جسمها ناحيته، فقاومت حركته وأبقت نظرها بعيداً عن وجهه. كان فمه يابساً كالتراب، وأطرافه مشدودة الأعصاب بصورة مؤلمة. إنها تحبه. إنها تحبه دون شك، ولكنها تجهل كل ذلك. وهو لا يعلم ماذا يجب أن يفعل إزاء هذه المسؤوية الغريبة التي فاجأته. حاول مرة أخرى أن يسحبها نحوه فلم تطاوعه. كانت تدفع كتفها وتنصرف برأسها وجسمها عنه، وكانت تفعل ذلك صامتة.

أحس، وهو مذعور، بالخجل يتسلل إلى نفسه. إن هذا يفسد كل شيء، ويحيله عاجزاً مشلولاً رغم تأكده من حبها له. كان الظلام خفيفاً يسترهما عن العيون، ولكنه لا يستره عن نفسه، وعن وجهه

الآخر. جذبها بشدة إليه فارتطمت كتفها اليسرى بصدره. رأى رأسها قريباً منه فانحنى عليها. كانت خصلات شعرها ناعمة داعبت وجنتيه وعينيه. لم يلمح من وجهها غير الخد الشاحب فوضع شفتيه الحارتين عليه. كان بارداً ناعماً، ناعماً؛ فيه رائحة الصابون والعرق. أحس بها تدفعه بذراعيها محاولة أن تتملص منه. كانت ملتصقة به فضغطها إلى جسمه. سمعها تهمس وهي تلهث دون أن تنظر إليه:

- لاع... لاع...

ثم تركها بغتة. أفزعته كل هذه الأعمال التي لا يتوقعها من نفسه قط. شعر بتخاذل وارتجاف في أطرافه أثناء ما كان يضمها إليه وتمس ركبته فخذها. ترامت على الحائط وراءها، وأخفضت رأسها إلى الأرض فانسدل شعرها على وجهها وأخفاه. لبث يراقبها خلال الظلام الشفاف. لم يصدر منها صوت ما، وكان منهوكاً مرتجفاً يتنفس بسرعة وعمق.

وبقيا، تحت السماء السوداء، كحيوانين جريحين يخشيان الحركة. لم يفهم لماذا انقلب اجتماعه السعيد بها إلى مأساة صغيرة، وكان ذهوله أقوى من الإعياء الذي يهد جسمه. لقد أفسد كل شيء جميل في نفسه عنها، وحطم تلك الصلة الموهومة المبهمة التي بنى عليها آمالاً كباراً، آمالاً مضحكة.

رآها تعتدل في وقفتها ثم تنساب جنبه كالشبح الخائف. لم يلمح وجهها إلا في لحظة خاطفة على الضوء الباهت. بدت له تقاسيمها يكسوها انطباع مرير بالألم والذل؛ كالطفل البريء يعذب دون أن يعلم السبب في ذلك وغايته. هل آلمها هكذا؟

وشم نفحة خفيفة من عطرها الساذج قبل أن تختفي في الظلام. سمعها تفتح باب غرفتهم وتغلقه دون ضجة، وكانت الدار ساكنة والنجوم تخفق بصمت في سمائها العارية.

شرب كأس ماء قبل أن يتهالك على الكرسي العتيق. لم ينظر إلى زوجته، واكتفى بالاستماع إلى أنفاسها المنتظمة ليعلم أنها لا تزال تغط في النوم. كان ضوء الغرفة أحمر ضعيفاً وعلى المائدة الملطخة إناءاً الطعام الفارغان. مسح جبينه المغطى بالعرق، ولبث دقائق وهو يتنفس بعمق منتظراً هدوء نبضات قلبه المضطرب. كانت بقايا الفاصوليا في قعر الإناء تثير اشمئزاز رغم جوعه. تصور لحظة أن في معدة زوجته شيئاً من هذا الطعام. هز رأسه الثقيل ثم أغلق عينيه براحتي يديه. كان يستشعر ضجراً وجموداً في ذهنه. لماذا يجب أن نفكر على الدوام؟ أن نبحث ونؤكد باستمرار أننا نفعل كذا وكذا، وأننا ضيعنا كذا وكذا؟؟ ولمن كل هذا؟؟ أراحه الظلام، فبقي واضعاً يديه على عينيه. لم يكن حزيناً كما عرف الحزن، بل متبلد الأعماق؛ لا يحس في داخله غير خمول حيواني منحط. هل فقد، بضربة واحدة، ركناً أساسياً من ذاته؟ وسليمة؟؟ بدهة الاسم الذي نبع في نفسه كالشمس. هل سيستطيع أن ينسى ذكرها طويلاً؟ وتخيلها تتكئ على الحائط بظهرها، وشعرها منسدل وذراعاها مسبلان. ثم رأى وجهها مرة أخرى حين مرت قربه مهانة حائرة متألمة. وخدها البارد الشمعي؟ لقد طبع قبلة عليه، قبلة ذات معنى وحشي لا يحتمل.

وأحس بنفسه وهو يهز رأسه من جهة لأخرى نافضاً عنه تلك الصور. إنه يرفض ذلك، يرفضه متأخراً كعادته. وعبثاً كانت قبلته رثة كقبلة الجرو، لقد أذلها بها وأخجلها. ولم يستطع هو أن يخجل قبل ذلك. وسيترك نفسه، سيترك، ليتآكل خجلاً وذلاً.

رفع يديه عن عينيه فعادت إليه المائدة البالية وصحنا الطعام وضوء الكهرباء الأحمر. هل كان هناك ما يخجل منه؟ تثاءب طويلاً. ولكنه سيمل كل شيء في يوم من الأيام. نظر تجاه سريرهم. كانت تدير ظهرها إليه واللحاف يكشف عن كتفها وشعرها اللامع المتهدل على المخدة. ما كنه هذا الوجود الكئيب؟؟ ما معنى أنه يوجد؟؟

لقد ضاع شيء ما منها بضياع نظرها؛ وهل يعني التزامه المعيشة معها، إلا أنه في طريقه ليفقد مثلها الشيء الجوهري الذي فقدته من قبله؟؟ سيفقد كل شيء إذن. ومن ينجينا من الإنسان الذي سنكونه؟؟

قام إلى الضوء فأطفأه. نعم، من ينجينا من الإنسان الذي سنكونه؟

صر السرير تحت حين قعد عليه ثم اضطجع وسحب اللحاف على جسمه. غرقت الغرفة بظلام فاحم سرعان ما بدأ يبهت تحت ضوء النجوم المتسلل من النافذة. كانت الستارة منحاة إلى جانب، تكشف عن السماء المتلألئة. فاضت الغرفة بالأحلام حين ملأها الظلام وأطلت عليها السماء من بعيد. كان ضائعاً يفتش عن وهم ما يمكن أن ينجيه، أن يبعده عن سجن أفكاره وذكرياته القريبة. وكان الظلام مساعداً على إمكانية خلق سراب ما، سراب يعصب العينين في طريق مليئة بالمهالك. وسليمة؟؟ هل كانت هي أيضاً سراباً سيطر على عقله دون أن يدرك ذلك؟ وهل انكشف له ذلك الآن؟؟

أحس وخزة خفية في صدره. بدأت ذكراها تثير شجنه، كمنت خلف نفسه لتزيد في تعميق جروحه. وكل هذا؟ ما أسرع وقوعه!

انقلب على جنبه الأيسر وواجه النافذة الطويلة ذات الستارة المنحاة. لم يسمع حركة في الدار، وكانت أنفاس زوجته ثقيلة يتخللها توقف بين هنيهة وهنيهة. ماذا يجري لسليمة؟ ماذا يجري في غرفتهما؟؟ لقد أعيدت الدورة، وها هو منتصف الليل الساكن يبتلع جريمة أخرى. ونحن مطمئنون مع ذلك إلى حياتنا التي لا تقطعها جريمة ما. لم تكن قبلته، التي تدعو للرثاء، على الخد البارد إذن، إلا هوة سحيقة انفغرت بينهما. ولكن، ماذا يمكننا أن نعمل أمام الإنسان الذي سنكونه؟ إنه مخلوقنا، وهو الإله الذي لا يرد.

أحس بعض الاضطراب يساوره. لم يكن خائفاً من أفكاره، ولكن جدتها ومباغتتها أثارت قلقه. ماذا يعني أننا سنوجد في المستقبل؟؟ ستستمر حياتنا، عواطفنا وأفكارنا وسنستطيع أن نحكم

على حاضرنا كماض؟ ماذا يعني ذلك؟؟ إنه ليس المصير، ليس المصير على الإطلاق. ما هو إذن؟؟

كانت أعصابه وعضلاته متوترة مشدودة تحت اللحاف، وكان يحس نشاطاً لا مثيل له في ذهنه. إن هناك أمراً لا بد أن يفهم وأن يعاش، لأن أهميته قد تفوق الحياة نفسها. لأن من المحتمل أن يكون هو الذي يعطي للحياة كل معناها وأساسها.

وخيل إليه، في الغرفة المشبعة بالظلام الباهت وبالأحلام، أنه لا يبعد إلا خطوة واحدة عن اللغز المريع الذي حكم ماضيه والذي سيسطر حله على أيامه القادمة. شعر أنه مستوحش وحيد في موقفه، ولم يكن جازعاً من المجهول.

لقد أراد دائماً أن يجد تبريراً لحياته. تذكر الضربة التي أصابته على رأسه في المستشفى، في تلك الليلة المشؤومة. إنه لما يزل لا يعرف عنها شيئاً، لكنه لا يعتقد أنها جرت عفواً وبمحض صدفة. شعر بقشعريرة تخترق جلد رأسه بخفة. ومضت لحظات عليه، وأتاه بعدها توقف مفاجئ في نشاط ذهنه وهبوط في حيويته. إنه يلج أسراراً لم توجد لها الحلول بعد. تملكه ضيقٌ شديد عصر قلبه وكيانه كله، فانقلب على ظهره ثم تنفس نفساً طويلاً.

لم يرتح، وبدأ توتر جسمه يؤلمه. كانت الغرفة دافئة، لا يظهر من سقفها غير خطوط تتموج في الظلمة. التفت إلى النافذة. كانت السماء لامعة صافية. شعر بحاجة إلى القيام والتطلع إليها. قد تمنح هذه الحركات راحة لجسمه المتعب. لم يتحرك، وبقي ينصت إلى أنفاس زوجته. إنها تنام بهدوء، ولعلها لا ترى حتى أحلامها الماضية. خطر له بغتة أنه لم يطرح أمام سليمة موضوع الكمبيالات المستحقة هذا الشهر. لم يأت ذلك على باله قط. ولم يتصور لحظة، حين كلم زوجته عنها، أنه سيعمل كل تلك الحماقات المخجلة مع سليمة. ولكن، لم كانت مخجلة؟

إنها تعبير عن رغبات كان يحس أنها مخلصة. أفلا يكفي إخلاصها؟؟ أهي النتائج إذن التي تخلجه؟؟ أيعني هذا أنه لو دبر اتصاله بها ثم أقنعها بأن ترغم السيد على تأجيل الكمبيالات، لما أحس خجلاً أو ذلاً؟؟

من يدري، ولكنه سيكون مجنوناً لو صدق ذلك. إن أعماله مدانة قبل أن يقوم بها؛ وليس عبثاً أن تلتصق هذه الزوجة به أبد العمر، وأن يجبر على دفع كمبيالات مستحقة دائماً. ولكن، ألا يجب أن تكون هناك جريمة ما ارتكبها، ليتبعها عقاب ينزل به؟؟

إلا أن كل البشر مدانون مثله، ولقد اتهموا وصدر الحكم عليهم قبل أن يوجدوا. وما أمر هذا، ولكن ما أسخفه! إنه كلعبة الأطفال التي تستمر بعناد على عدم الاختلال. إلا أننا يجب أن نعلم معنى أن نوجد. إن الولادة سخيفة وآلية وحيوانية، وكذلك الماضي. وما يهم حقاً هو «الآن». ولكننا لا نتجرد وننفض الماضي أو تلك العملية الآلية الحيوانية. إننا نضع أنفسنا أمام الماضي؛ أمام المخلوق الضعيف ذي الأحلام الفارغة الذي كناه. أمام الطفل الفقير في بعقوبة الذي لا يتقن الكتابة ولا القراءة بلغة أجنبية، أمام العاشق الرقيع الذي يتابع فتاته ويخشى أن تراه، أمام الزوج.. آه.. الزوج الذي تعب من كل شيء فأراد أن يقوم بالمعجزات.

قام من ضجعته وسار إلى المائدة ثم جلس على الكرسي بمواجهة النافذة. لم يشعل الضوء وبقي يراقب ما يبين له من السماء وخشبة المحجر. كان في غمرة فيضان عاطفي مؤلم. لم يدر لماذا واتته كل هذه الأفكار والذكريات. كان يحسب أن بمقدوره طردها إذا شاء؛ ولكن، ها هي، تفترسه وتبدأ بذهنه وقلبه أول ما تبدأ.

أحس برودة في ظهره فمد يده وفركه قليلاً بهدوء. أليس من الحماقة أن نفكر بأنفسنا ونبت بمستقبلها في ليلة يملكنا فيها البرد؟؟ سمع باب غرفتها يفتح ويصدر عنه الصوت المألوف الذي يعرفه. قام

بخفة ووقف قرب النافذة. كان ضوء النجوم ينير الطارمة الضيقة أمام غرفتهم. سمع أقداماً ثقيلة تطرق الأرض ببطء، أعقبتها قحة خافتة. ترى من يكون؟؟ ورأى الشبح النحيل المنحني الظهر يمر أمام النافذة، وأدهشه أن يرى السيد يستطيع السير دون عصاه. كان يقصد ناحية المرحاض وهو يتشبث بالمحجر الخشبي.

لبث ينصت بتذمر إلى الإيقاع المشوه حتى تلاشى فجأة. لم يخطر في ذهنه أي شيء. كان خالياً كقلب الطفل، وبقي يتطلع إلى النجوم.

كانت الليلة هادئة باردة والسماء صاحية سوداء، لا يبدو منها أن المطر قد يسقط غداً.

(٥)

تركوا «خان بني سعد» وراءهم وخرجوا إلى الفضاء الواسع. كانت الشمس بيضاء تغرق الطريق والسيارة بفيض مستمر من أشعتها الحامية. لم ينقطع الجالسان قربه عن الثرثرة رغم حرارة الجو. وكان يحس برأسه يتصدع ألماً وهو يجد نفسه مضطراً خلال دقائق طويلة لسماع حديثهما السخيف. لم ينم جيداً، ولا يدري لماذا استيقظ منذ الصباح الباكر مع علمه أنهما لن يسافرا قبل العاشرة. وها هو يدرك الآن معنى ألا ينام الإنسان. كان يشعر بمثل الحمى الخفيفة تنتابه وتتركز في عضلات رجليه المتصلبتين. لم يرتح في ذهابه إلى بعقوبة، وها هي العودة تكاد تمرضه.

أغمض عينيه. لا عجب أن يقع طريح الفراش. إن التعب يقطر من كل جزء في جسمه. أهلكته هذه الأيام القليلة الماضية. وكان هذا اليوم قمة متاعبه. لم يعتد أن يسافر صباحاً ثم يعود قبيل الظهر؛ دون طعام، دون راحة. جلس في المقهى قرب محطة القطار، بعد أن أوصلها، ولم يخطر له أنه قد يجوع بعد ساعة أو ساعتين. شرب الشاي فامتلأ فمه بطعم كريه، أعقبته نوبات غثيان مريع شعر فيها أنه يحتضر. وزاد من ضيقه رؤية ذلك الرقيع عبد الوهاب وتعامي هذا عن كل شيء غلا عن شوقه المزعج لصديقه القديم.

فتح عينيه، فبهره الضوء القوي وأحس بكرتيهما تتقلصان بشكل مؤلم. كان الحر شديداً داخل السيارة، ومجرى من الهواء الساخن يمر على خده الأيسر. تطلع أمامه عبر رؤوس الجالسين فرأى الطريق المقير يمتد كالسهم الأسود.

سمع أحد الجالسين قربه يتكلم بحمية:

- مولانا آني أعرف شغلي. شنو كوكو كولا، شنو بطيخ. آني اكولك ديخسرون. لويش ما ديخلون طمغة الشركة على القبغ؟؟ ها؟؟ أشوكلي؟؟ كل القبغات هالأيام طمغة سز، شنو يعني هذا؟؟

أجابه الآخر:

- ماكو هيجي حجي. أول البارحة شربت ببسي وشفت طمغة هالكبر على القبغ.

فصرخ صاحبه:

- شنو ببسي؟ دا أكولك كوكو.. كوكو كولا.

- هم هذوله شركة وحده، صنف واحد.

فاستمر الآخر على صراخه:

- وين أكو هيجي لغوة. مولانا كل وحدة شركة، ببسي وحد، كوكو وحد.

فتدخل السائق السمين بصوت خشن هادئ:

- ثنينهم فد ترتيب. أخوة من أب وأم.

فالتفت الأول إليه:

- شنو ياب؟؟

فلم يجبه السائق ومد يده فأدار آلة الراديو الصغيرة. عاد الاثنان إلى ثرثرتهما.

شعر ضيقاً هائلاً في قلبه. كانت الأرض الترابية الحمراء تسرع تحت بصره، وفي طرف الأفق لمح خطا أخضر قصيراً. دون جدوى، كل ما يعمل. ماذا يملك زيادة على ما يملكه هؤلاء؟؟ إنهم يعيشون، يعيشون. ولكن هذا لا يعني شيئاً، يجب ألا يعني شيئاً. لأنه مثلهم يعيش ويعلم أنه محكوم أن يعيش وأن يشابههم. إلا أنهم يقفون عند حد الحياة الحيوانية، ليتركهم هو إلى أزمات..

هل هي إنسانية؟؟ ولكنهم لا يعرفونها على أية حال، وهي لا تخطر بالضرورة على بالهم. لماذا نسميها، إذن، أزمات إنسانية؟؟ إن قليلاً من البشر يمرون بها، فهل هم وحدهم الذين يمثلون الإنسان على الأرض؟

سمع أحد الجالسين يتكلم:

– شوف، هذا الحصان بعده ما مات.

كان واقفاً كالحجر قرب منحدر أجرد تحت الشمس اللاهبة ورأسه ورقبته منخفضتين عن مستوى جسمه. تذكر فجأة أنهم رأوه حين ذهابهم إلى بعقوبة. كان لونه أملح يميل إلى السواد وجسده مليئاً بالبثور والكدمات. لم يلفت بصره آنذاك، إلا أن منظره يؤلمه الآن. كان استسلاماً مريعاً للموت؛ ولكنه لا يزال يشترك مع بقية المخلوقات في هذه الحياة. إنه يعيش مثلهم، على شفا الهاوية. كانت عظامه بارزة تحت الجلد، ومنخفض بطنه يكون ظلاً عميقاً.

سمع المتكلم يستمر:

– هذا صار له خمسة أيام على هالشكل.

كان الجميع ينظرون إلى الحصان دون اكتراث. تكلم الثرثار قربه:

– هذا وجعان مولانا. لاكت هسه ما يموت. يبقى أسبوع لاخ طيب.

– إي، يبقى. بيه حيل.

– آني شايفه من يوكع. هذا يبقى واكف مولانا هالشكل ليل نهار. ميصير عليه شي. لاكت، شوف خلقه ربنا، من يحرك رجليه يريد يمشي يوكع فد وكعة. ويبقى يعالج فد جم يوم لاخ إلى أن الله يفرجها عليه ويموت.

– استغفر الله.

- خلقه ربنا. صوج صاحبه مولانا. جان لازم يرميه.

علقت عيناه بالحصان حتى اختفى عن نظره. شعر ألماً داكناً يغرق قلبه بهدوء وهو يتصور الأرجل العظيمة تنثني فيرتمي الجسد النحيل رميته الأخيرة على الأرض. أهو حقاً نتيجة لعمل من أعمال الله؟؟ وما دخل ذلك الأعرابي البليد، صاحبه، حين بخل عليه برصاصة تريحه إلى الأبد؟ هل يعني هذا أن نتائج الله تتوقف أحياناً على إهمال إنسان تافه؟؟ وإذا لم تحدث مرة، فهل يوجد أي شيء بعد ذلك، أي سبب، أي نتائج؟؟

كان جو السيارة لزجاً حاراً كريه الرائحة. لم يدر إلى أية جهة يضع بصره؛ فكرتا عينيه تؤلمانه كلما تطلع إلى الخارج، ووجوه الجالسين تثير اشمئزازه وكآبته. انتبه إلى غناء خافت ينبعث من الراديو وتغرقه ضوضاء السيارة قبل أن يميزه. مر بيده على جبهته فأحس بالعرق يبللها. أخرج منديله فمسحها ببطء. لاحظ رقبة الجالس قربه الضخمة الحمراء المبللة. لم يبد عليه أنه يشعر بالحر أو بالعرق، وكان يتكلم بهمس أثار استغرابه. هل يملك سراً ما؟؟ سراً محرقاً هو لباب حياته؟؟ ومن أين يمكن أن يتجمع هذا الشحم لو احتوى الجسم أسراراً لا تحل تحرقه باستمرار؟؟

سمع أحد الجالسين يكلم السائق:

- ما تعلي حس الراديو، منو ديسمع؟؟

لكنه سر غبي لا يتعدى قناني الكوكا كولا. أدار نظره نحو الخارج. كانت السماء خفيفة الزرقة مشعة الضوء، وعلى جانب الطريق خرائب يحتمي بظلها بعض الرعاة. سمع صوتاً رقيقاً من الراديو «ليش بس تشوف عيني، بيرتعب قلبك» فأحس موجة من فيض عاطفي مبهم «.. غير هيك ما بحبك، غير هيك ما بحبك يا خيي» وتبع ذلك لحن بسيط ساذج.

كانت له ألفة بهذه الأغنية وبالصوت الرقراق الذي يهمس

بها. أنصبت إليها عدة مرات في مقهى حسن عجمي خلال الأسابيع الماضية. «ليش بس تشوف عيني، بيرتعب قلبك». عيناها؟؟ عيناها في المساء، عيناها في الليل تحت الضوء الشاحب، عيناها في أحلامه، عيناها في حياته. أخذه الذهول وهو ينغمس في ذكرياته، فاتكأ بكتفه على جانب السيارة.

كانتا، عيناها، سرين يتبعان أفكاره وتصاميمه. رآهما يتألمان في مدفنيهما المظلمين، رآهما يعلمان ما يريد لهما. ماذا بقي من تلك العيون لتستطيع ملاحقته؟؟ لم تحدثه بشيء منذ أن هجس في نفسها أنه يدبر لها مصيراً لا ترضاه؛ تسلل إليها السكون بارداً فأحالها مخلوقاً لا يمت لعالمه بصلة. ولم تكلمه قط، لكن عينيها وأصابعها ترقبوه وجادلوه ثم تضرعوا إليه. «بمحبتي ما بريد تتولع، تحكي علي الناس» وكان ضعيفاً حائراً. خشي أن تسأله ماذا يعني ذهابهما إلى بعقوبة، ماذا يعني ذهابها إلى أهلها، إلا أنها لم تفعل، وكان صمتها فهما واستسلاماً. وجمع حوائجها كلها وحشاها في حقيبة قديمة. كم كانت ثيابها رثة! ونهضا مبكرين. كانت تعلم أنه سيوصلها ثم يعود إلى بغداد في نفس اليوم، قال لها إنهم لم يمنحوه إجازة في الدائرة، ولعله سيستطيع أن يصل قبل نهاية الدوام. كان يكذب عليها، وكانت تعلم ذلك. وودعت أم سليم وقبلتها، فبكت أم سليم ولم تبك هي. كانت تقاطيعها متقلصة جامدة، ووجهها شديد الصفرة بين العباءة السوداء. سارت معه متشبثة بيده؛ لا يزال يحس أصابعها على رسغه. وبقيت تمسكه بعد جلوسهما في السيارة، فنبهها فسحبت يدها وأدخلتها تحت العباءة. كانت تجلس بسكون جنبه، ملتفة بعباءتها رغم حرارة الجو الشديدة. شعر أنها تريد أن ينتهي كل شيء، وأنها راضية عن آلامها. رأى العرق يتجمع فوق جبهتها وتحت نفرتي عينيها، ولم يبد عليها أنها تحس به. سألها أن ترفع عباءتها قليلاً وتفسح المجال للهواء، فلم تجبه. كانت في عزلة مخيفة، وكانت توحي له بوحشة تعصر القلب. لقد سحقت نفسها تحت مصير

صدفي، ولم يكن له يد في ذلك؛ ولا هو يدري لماذا يتألم في محاولته الخلاص من مصيرها هذا. كانت متشبثة به، وكان وجودها معه يكفيه ليموت. ولكنه يتألم، يتألم ألماً خبيثاً. لم يرد هذا الثوب المرير لأفكار ظنها نبيلة إنسانية.

انتبه إلى السيارة تقف فجأة قرب مقهى، وعلى السائق ينزل منها.

سأله أحد الركاب:

- خير إنشا الله؟؟

فأجابه السائق بهمهمة:

- ينراد لها ماي.

ثم مشى داخلاً المقهى.

كان الراديو مغلقاً، والصوت الرقراق لا وجود له؛ وكانت الشمس تلفح بأشعتها البيضاء المتوهجة سقف المقهى الطيني والأرض الفسيحة وراءه. خطر له أن ينزل من السيارة ويتخلص لفترة من جحيمها الخانق. فتح الباب فضرب وجهه هواء حار سريع وشعر بحرارة شديدة على رأسه. آلمته عيناه فأغلقهما لحظات نصف إغلاقة. سمع ضوضاء السائق وهو يحمل دلو الماء ويصبه في الماكنة. كان الجالسان قربه قد خرجا إلى جهة منعزلة يتبولان. بينما بقي الآخران في صدر السيارة يستمعان إلى نشرة الأخبار بعد أن فتحا الراديو إثر ابتعاد السائق.

أحس، في وقفته، بضعف في رجليه فأمسك بطرف الباب المفتوح. تذكر أنه بأشد الحاجة إلى شيء يأكله وإلى ساعات طويلة من النوم العميق. لقد انتهت بسلام كل تلك السلسلة المملة البائسة من المحاولات. وها هو، خلال أكاذيب غير بالغة القذارة، يستطيع أن يدعي أن له الحق في احترام نفسه. إن قلة من الناس يفعلون ما فعل.

قلة بمقدورهم أن يضحوا في سبيل تكامل ذاتي غير مبتوت بوجوده. ولكنه كان يكرهها كامرأة، وإن أشفق بشدة على بؤسها. ألم يكن هكذا؟ وهل يكفي امرأة أن يشفق عليها؟؟ ولكنها لم تعمل شيئاً ضده، لو تركنا كل أمر آخر على جانب. كان يهمها ألا تخسر شفقته بعد أن يئست من حبه. ولم تستطع ذلك.

أفزعه هتاف السائق بصوته الأجش:

– تفضلوا يا جماعة.

فأسرع إلى محله. شعر بحرارة فظيعة في ظهره وفي رأسه ووجنتيه وهو يتكئ بظهره على حشية المقعد. هب عليه مجرى الهواء الحار فلعب بخصلات من شعره. كان الجميع سكوتاً منكمشين تحت السقف الملتهب وماكنة السيارة تهدر كالثور. رأى في الأفق أمامهم خطوط بنايات بعيدة، ثم سمع أحد الركاب يسأل:

– هاي بغداد الجديدة؟

فأجابه السائق:

– نعم سيد. هذاك السكف العالي يعود للريسز. اليوم ماكو لعب. جعلوا اللعب يوم الجمعة والسبت والأحد.

ثم نحنح وبصق.

هل سيصلون إذن؟ سيأكل ويرتاح وسيعلم ماذا يعني ان نحقق ما نريد؟؟

لم يحس فرحاً، وهجس في نفسه أن من العبث أن يفتش عن مثل هذه الأمور بعد الآن. إلا أن هذا لم يكن ملائماً له؛ لقد كان هناك هدف ما في أحد الأيام، فهل ناله؟؟

لم يرتح إلى ما يدور في ذهنه، فعدل من جلسته ومسح العرق عن جبينه. كان يدرك بصورة مبهمة حمق التفكير في الهزيمة دون سبب.

هب من نومه الثقيل فجأة فجلس في الفراش وهو مضعضع الذهن. لم يدر السر في يقظته المزعجة. كانت الغرفة ساكنة خانقة الهواء، وحزمة الشمس الحمراء على جهة عالية من الحائط؛ وكان فمه جافاً ورأسه منتفخاً كالدملة. انطرح على السرير بعد عودته كالجثة المحنطة، فأخذته غيبوبة النوم رغم حرارة الغرفة وصداع الرأس.

مسح جبهته ووجهه فتبللت يده بالعرق، فأعاد مسحهما ثانية. كانت أنفاسه مضطربة وفي قلبه خفقان غير عادي. رأى باب الغرفة مغلقاً، فقام بتثاقل وفتحه. بدت السماء زرقاء في حمرة خفيفة لامعة. وأتته ضوضاء الجماعة في الطابق الأسفل. إنهم يشربون الشاي، ولعلهم سيتعشون بعد ساعة ثم يصعدون إلى السطح ليرموا بأجسادهم على السرر بكل شوق؛ ثم ليبدأوا في الصباح التالي يوماً جديداً. أما هو.. رأى نجمة صغيرة خلال فيض الحمرة المتلاشي، وكانت تتلألأ كالجوهرة بغبطة وبهجة. شعر بارتياح في تطلعه إلى السماء وبالهدوء يتسرب إلى نفسه. ماذا يكمن فيه فيجعله منفصلاً عن هذه الأشياء الجميلة؟ أهي الحياة؟ وما معنى ذلك؟

انتبه إلى حركة عن يساره؛ كانت سليمة تغلق باب غرفتهم. استدارت إليه فجذبته في عينيها ضحكة لم يفهم سببها، واقتربت منه حتى صارت على بعد خطوتين:

– مساء الخير.

كانت ترتدي ثوباً وردياً باهتاً وتضع حمرة خفيفة في شفتيها وخدودها. شعر بانزعاج يخالطه سرور مبهم. لم يجبها وسألها:

– نايمة بالكبة جنت؟

فأغمضت عينيها أن نعم. لاحظ بروز نهديها وطيات اللحم الصغيرة قرب إبطيها. كانت ذراعاها مكشوفتين وبعض خطوط ملابسها الداخلية تبدو له بصورة مبهمة. لم يرها هكذا، متفتحة

جريئة، منذ مدة طويلة. فصلت بينهما تلك الليلة البائسة ولم يحاولا الاقتراب من بعضهما. لكن رباطاً غير منظور يصل بينهما. وكان يحس به في لفتة منها أو نظرة جانبية، ولم يكن يؤمن بوجوده. سألته وهي تضع يدها على المحجر:

– شوكت جيت؟

كانت ناضجة الجسد ممتلئة بشكل ظاهر؛ وكان يبدو عليها أنها تحس بذلك وتحس بتكامل المرأة فيها. أجابها وهو يشعر بانزعاجه يتلاشى:

– كبل أربع ساعات. أول ما جيت نمت.

فرفعت حاجبيها وابتسمت:

– بهدومك؟؟

فانتبه إلى أنه لا يزال يرتدي بنطلونة وثوبه. هز رأسه وسألها:

– وين رايحة؟

فرفعت إحدى كتفيها ومسحت ذراعها بيدها:

– ما أدري. جوه أشرب جاي.

– تعالي هنا شوية.

ودخل الغرفة فاقتربت ثم وقفت في إطار الباب. جلس على المائدة الفارغة وأخذ ينظر إليها.

ماذا حدث له فدعاها للدخول إلى غرفته؟ توترت أعصابه قليلاً وهو يطيل من تأمله فيها وأحس اضطراماً في نفسه يزداد شيئاً فشيئاً. أبعد عن فكره بصعوبة تلك الخاطرة التي كانت ترد عليه بإلحاح – أنه يشتهيها، يشتهي هذا الجسد الذي يذكره بالربيع وهذه الروح الشابة، ويتمنى كل شيء فيها لنفسه. إن شوقه إليها يزيد من جمالها ومن فتوتها وحرارتها. ولكنه، آه، إنه لا يريد عملاً يائساً آخر.

سألته فجأة:

- وصلتها لبيت أهلها؟

وكانت في عينيها وفي شفتيها وفي اتكاءتها على باب الغرفة، شماتة نسوية بلهاء. أذهلته لحظة تعريتها الفجة لكل أزمته. وبقي ينظر إليها ببعض الانزعاج. كانت تميل بكتفها اليمنى على حافة الباب المفتوح وهي تعبث بخيط متدل من ثوبها. لم يجبها، وشعر بتفوق وهو يحتمي بصمته ويتطلع إليها كأنها لم تستطع وضع أصبعها على الجرح الخفي. إلا أنها لا تفهم ذلك، لا تفهم معنى صمته.

عادت إلى كلامها:

- أمي تكول طلكها.

كانت تقاطيع جسمها تبين لعينيه والشمس تضرب على الثوب الخفيف من خلفها. هل من المعقول أن يفعل كل شيء لأجل هذه الطفلة؟؟ لأجل جسد واحد؛ مهما بلغ من جماله وأنوثته؟؟

سألته بنفس لهجتها اللينة المتراخية:

- صدك طلكتها؟؟

ثم نقلت ثقل جسمها إلى ساقها اليسرى. أجابها بصوت خشن بارد:

- أنت شعليج؟؟ شمدريها أمج؟؟

فلم يبد عليها أي تراجع. قالت:

- أمي كالت، آني ما أدري. تكول شنو صوجها؟

قام يتمشى خلال الغرفة الفارغة دون أن ينظر إليها. شعر بحاجة إلى حركة يلهي بها جسمه. كان منظرها مثيراً يوحي إليه بأفكار لا يريدها. إنها تقلب أزمته ودوافعها رأساً على عقب. لم يكن شخصاً يحترم ذاته وهو يقف أمامها. وهكذا إذن، وعلى غير توقع، يجد من يقول له إنه انهزم من الإنسان النبيل الذي أراد أن يكونه؛ وإنه كره زوجته واشمأز منها فطلقها، لا غير، لا لسبب آخر. ولعل من

حسن حظه ألا تنبثق أسباب أخرى. ولكن، أليست هذه الصغيرة الساذجة على حق، ومن ورائها أمها وإسماعيل والجميع؟

إنهم يتمسكون بمنطقهم لأنه يصون من أجلهم طرازاً معيناً من الحياة ويضمنه لهم زمناً غير محدود؛ بينما لا يهمه هو غير تحقيق فكرة لا تمس أحداً غيره في أقصى درجات خيرها. ألم يتآمر على تلك المخلوقة؟؟ ألم يخدعها؟؟ وماذا يجري أن تكون الغاية إنسانية نبيلة إذا ترصدت له في طريقها مثل هذه الضحايا؟؟

سمعها تهمس برقة:

– أذوك أهلها؟

فاستغرب رقة صوتها وحنانه، ولم يخطر له من قبل أن بمقدورها أن تتكلم هكذا. كانت أشعة الشمس قد ارتفعت عنها وبدت السماء خلفها حمراء غامقة الحمرة. رأى عينيها الطويلتين تفيضان بسحر غامض وخصلة من شعرها تلمع فوق كتفها. لم ينزل بنظره إلى جسدها. سألها:

– لويش؟

وكان متأثراً في قرارة نفسه. هل تشفق عليه؟؟ هل تكن له عاطفة ما في أعماق قلبها؟ ولماذا؟ قالت وهي تخفض نظرها إلى الأرض:

– أشو مقهور هواية.

فتوقف قريباً منها وأخذ يتأملها. كان ضوء السماء وراءها باهتاً يمكنه من تمييز ملامحها وحركاتها؛ وكانت لا تزال تعبث بخيط ثوبها. لاحظ أصابعها الدقيقة السمراء وأظافرها المصبوغة بالأحمر. خطر له أنها تريد أن تظهر له ما تضمر. تهجس ذلك في حديثها وحركاتها ونظرات عينيها. غير أنه لا يملك استعداداً للانسياق وراء هذا الوهم. قال لها:

– ماكو هيجي شيء. لويش أنقهر؟؟

فرفعت عينيها إليه. كانتا سوداوين ساكنتين، وفي طرف كل منهما خط رفيع من الكحل. لم تجبه، ولبثت تنظر إليه لحظات. داخله اضطراب وهو ينتظر منها كلمة أو بادرة، وكان يرى منها عينيها تلمعان باستمرار. بللت شفتيها بلسانها، فجذبته حركتها البسيطة هذه إلى فمها. كان جميلاً تحيطه شفتاها الممتلئتان بقوسين جريئين. أحس دعوة مبهمة لا تحتمل في حركة لسانها وفي انفراج شفتيها، فازداد اضطراب قلبه. أعاد نظره إلى عينيها، فواجهته نفس الدعوة الأنثوية المحرقة.

شعر على حين غرة أنها تضعه على شفا حفرة لأحد لقذراتها. قال بسرعة وهو يتجه إلى ناحية أخرى من الغرفة:

- روحي هسه سليمة. روحي بالعجل.

وكان يلهث في كلامه. لم يرد رؤيتها ورؤية دعوتها وكان يعلم أنه أضعف من أن يجرب نفسه في أمور تخصها. وقف قرب النافذة المجاورة لفراشه وأمسك بحديدها الحار.

سمعها تتكلم بصوت خافت:

- أشوكت أجي.. لعد؟؟ قابل نص الليل؟؟

فأشار إليها بيده إشارات سريعة أن تخرج، أن تبتعد، ولم يلتفت نحوها. كان مرتجف اليدين ملتهب الذهن، وكان يعتقد أنه مخلص في فراره منها. ولم يدرك، لذلك، كيف يفسر شعور الخيبة الذي انصب عليه حين سمع الباب يغلق ووقع أقدامها يتلاشى. أليس هذا هو الجنون بعينه؟ ماذا يعمل؟ أي طريق يسلك لينجو من انهيار مهين؟

أغمض عينيه فترة فأحس بدوار في رأسه، كأن الأرض تتمايل به. ضغط بقوة على قضبان النافذة، ثم وضع جبينه على أحدها. كان مضطرب النفس بشكل لم يعهده من قبل. هل ينفعه ابتعاد موقت عنها؟؟ وماذا يعمل إذن، ماذا يعمل بنفسه؟؟

رفع رأسه وفتح عينيه. كانت السماء زرقاء داكنة، خالية إلا من بضع نجمات متفرقات، وكانت الغرفة مظلمة بعض الشيء. خطر له أن يخرج إلى الشارع، فأسرع يرتدي سترته ثم نزل السلم وانفلت نحو الباب ومنه إلى الطريق.

لم تبن له معالم الأرض المظلمة، وتعثر مرتين أو ثلاثاً، وكانت ضجة الشارع تسمع من بعيد. إذا كانت تملك مثل هذا التأثير عليه، فهل يمكنه أن يعتقد أن وجودها شيء عابر في حياته؟ ومن يقدر أن ينفي صورتها عن كل تصاميمه وأفكاره؟ لقد كان يتآمر على زوجته حين طلقها وحين أوصلها إلى أهلها ليأتيها خبر الطلاق هناك. كان يخشى منها، لأنها كانت ستفضحه لو علمت. كانت سترفع هذا البرقع من الأفكار النبيلة عن عواطفه المبتذلة.

تعثر مرة أخرى فتوقف عن السير. انتبه إلى أنه، في انشغاله بأفكاره، قد سلك الطريق الخاطئة فبدل اتجاهه ومضى في سيره. كان دائخاً منقبض الصدر، وكان يحس بحاجة إلى الانطلاق في فضاء فسيح لا حدود له. هناك لن يعرف أحداً، لن يرى إنساناً ولن يراه أحد. ولكنه الآن وحيد، إلا من العيون البعيدة التي تراقب قلبه. لقد علمت ما يدبره لها، علمت بالتأكيد. وأخبرته عيناها المدفونتان وأصابعها العظيمة المتشبثة ببعضها، بأنها رضيت بمصيرها المفجع. ولقد قنع برضاها، هو البليد الجبان؛ أقنعه بؤسها بأنها يجب أن تموت.

كان الازدحام شديداً في شارع الرشيد، والسيارات متراصة وراء بعضها، وكان الجو مغشى بالغبار والحرارة تشع من كل شيء. رأى نفسه يتجه نحو مقهى حسن عجمي القريب. لم يفد السير في تهدئة أعصابه؛ وحين دخل المقهى وجلس على كرسيه الخشبي المعتاد، شعر بتخاذل غريب في جسمه. كان مرهقاً، مستنفد القابليات؛ أرهقته هذه الحياة خلال أيام قليلة. لم يرتح إلى أي عمل

قام به، ولا يزال كذلك. وكان يحس برغبة شديدة في استراحة طويلة لا يعكرها عمل أو تصميم.

رأى إسماعيل يمر قريباً منه ثم يختفي. لم يناده ولبث في كرسيه ساكناً. ولم تمر دقائق حتى رآه يقف أمامه وهو يهتف:

– مساك الله بالخير أبو جاسم.

كان مبتسماً وفي عينيه الصغيرتين بكاء مفضوح. استمر:

– شلونك؟؟ شوكت جيت من بعكوبة؟؟

واختفت الابتسامة من فمه، وبدا مخلصاً والألم يملأ وجهه. أجابه:

– كبل جم ساعة. فد ماي وجاي بالله إسماعيل.

– ممنون لأبو جاسم.

ثم تردد قليلاً قبل أن يمضي في سبيله. كانت دشداشته الزرقاء الحائلة مبللة بالماء، وحزامه المشدود يبدي نحول جسمه. ماذا يضم قلب هذا المخلوق الهرم المعذب؟؟ وكان طرف يشماغه الملفوف بإهمال يتدلى قريباً من عظمة كتفه البارزة. هل يخفي فضوله مشاركة فذة لأزمات الآخرين؟؟

لقد شغله التفكير في إسماعيل وهو أحلك ساعات محنته. كان يخطر له، ماذا يمكن أن يعمل إسماعيل لو كان بدله؟؟ ولم يصل إلى نتيجة ما؛ وكان يتوقع ذلك، ويتوقع أشياء كثيرة أخرى. إلا أنه لم يرد أن يكون من البسطاء، لم يرد أن يكون ضعيفاً. ولا يزال يرفض سعادة الاستسلام هذه.

كان ذاهلاً، يشعر كأنه يفكر بعواطفه. لم تكن ضوضاء المقهى موجودة، لكنها تفاجئه الآن فتمنع عنه انعزاله وتقطع مجرى مشاعره الداخلي. كان الجو مليئاً بدخان السجاير الأبيض، إلا أن الحرارة بدت أقل شدة من الخارج. لم يعرف أحداً من الجالسين،

وكانت الوجوه السمراء المصفرة خالية من كل معنى. إن لعنة الإنسان الوحيدة هي أن يعيش باستمرار. أن يدفع عائشاً كالعربة تطلق من أعلى جبل. لا هوادة، لا فترة موت، لا وقت للاستجمام في رحم الأم. وكل ذلك منطبع على هذه الوجوه، وأصحابها يعرفونه جيداً. ولكن؛ لا بأس ما دمنا نستطيع أن ننسى.

وجاءه إسماعيل يحمل الشاي وكأس الماء، فوضعها قربه ووقف هو قبالته. وماذا ننسى إذن؟ ألسنا ننتظر أنفسنا في المستقبل الأسود؟ وكان إسماعيل يتكلم معه. رآه يفعل ذلك ولم يسمعه. وهذا إسماعيل الحاضر أمامه الآن، كان ينتظر إسماعيل قبل عشر سنوات ليجعل منه صانع مقهى. وإسماعيل الآخر لا يزال ينتظر في المستقبل ليستمر على صب إسماعيل العجوز في قالب صانع مقهى. ورأى إسماعيل يبتسم بخجل ويشير بيده نحو جهة مجهولة، لم يسمعه. وأين إذن نضع إرادتنا وحريتنا في هذه السلسلة البغيضة من المصائر المقررة؟؟ أفي الحاضر؟؟ ثم رأى إسماعيل ينحني نحوه فشم رائحة تبغ نفاذة وسمعه بغتة:

- ... فآني سويت نفسي ما آدري. لاكت سيد هاشم ما دار باله علي. لا والله انقهرت هواية سيد محمد. خطية، خطية.

كانت عيناه محاطتين بالأقذار، ويضع قطرات من الماء تلمع في لحيته البيضاء الحائلة. هتف به متسائلاً وقد صدمه صوت الذي لم يسمعه من قبل:

- شكو؟؟ علمن دتججي إسماعيل؟؟

فعادت الابتسامة الخجلة المؤلمة إلى فمه:

- آني أدري أنت ما تسمع مني أبو جاسم. لاكت آني هم مثل أبوك الله يرحمه.

وأشار إلى لحيته وإلى صدره، ثم استمر:

- لويش نشيل خطية غيرنا؟ الله يفرجها.

هل يتكلم عن زوجته هو أيضاً؟؟ وماذا يمكنه أن يريد؟؟ سأله باستغراب:

- علويش إسماعيل؟؟ علويش؟؟

فاعتدل في وقفته ومسح يديه بدشداشته حائراً:

- على أم.. على الجماعة. ما يصير سيد محمد. الله ما يقبل.

هو يقصدها إذن! كان بوده أن يصرخ في وجهه ويطرده، ونظر إليه متمعناً. رأى فمه متقلصاً بشكل كريه، وبضع أخاديد تشوه الوجنة الصفراء. بدهه طابع العذاب في تقاطيع إسماعيل. لقد تألم هذا المخلوق طويلاً. وكانت عيناه الداكنتان تلمعان بفيض خفيف من الدموع أذهله. أبمقدوره أن يعيش مصيرها خلال لحظات معدودات، وأن يبكي معها؟

لم يجبه، وأنزل بصره؛ ثم لاحظ ابتعاد الدشداشة الزرقاء عنه. مد يده وتناول استكان الشاي. أثرته هذه الرؤية القصيرة لوجه إسماعيل. بقي ساكناً في مكانه وهو لا يدرك كنه هذا الشعور الذي يموج في نفسه. كان متضايقاً قلقاً يساوره خوف مبهم. ألم يعمل الصواب؟؟ وهل يستطيع أحد أن يقرر ذلك؟؟ وماذا يعرف إسماعيل عن نفسه وعن الآخرين؟ إنه يدرك عزلة الآخرين بغريزته، ويدرك أن حبه لا يكفي لتخطيها. ولهذا يريد أن يموت على عتبتها. وبهذه الفكرة أيضاً كان يريد منه أن يعمى مع زوجته وأن يفنى معها، وكان يريد أن يداري مأساتها بمأساة أخرى من عنده.

ولكنه يعلم كل هذا، ووضع الاستكان الفارغ جنبه. ولو لم يعلمه جيداً لما فعل ما فعل. قام من مكانه فاخترق صفوف القنفات وخرج إلى الشارع. لفحه هواء الطريق الحار، فأغذ الخطى نحو باب المعظم.

كان الظلام قد تكاثف وأضوية الشارع والمخازن مشتعلة جميعها. لم يعلم إلى أين يتجه وأين يقضي وقته. كان وحيداً بغير قيود وبغير

أفكار. تذكر سليمة وعينيها وسؤالها الأخير - متى تجيئه. رأى السماء زرقاء ينتشر عليها نور خفيف أبيض.

وصل محطة الباص فتوقف عندها. لم يدر سبب توقفه. أقبلت إحدى السيارات الحمراء فدفعته عجوز إلى جانب وتقدمته نحو الباب. أفزعه ذلك وتراجع خطوات إلى الوراء مراقباً الصاعدين. كان قلبه يخفق بسرعة، وخطر له أنه خشي أن تكون العجوز شاباً آخر يطلب مساعدته. ماذا كان سيعمل؟؟ وماذا كان سيعمل إسماعيل؟؟

أما هو فلا يدري. وأما إسماعيل، فإنه سيحتضن الشاب ويجلس معه على الرصيف ليموتا سوية. لم تسره هذه الفكرة. إنها حل أكيد رغم بؤسه. عاود مسيره. أما هو فكل ما يستطيع أن يؤكده هو أنه لن يعمل هكذا. ويبدو أن على الشاب أن يؤجل احتضاره إلى حين إيجاد حل منطقي. وكان هذا أمراً سخيفاً.

واجهته فسحة في الطريق كشفت لعينيه منظر السماء. لم ير غير نجمة أو نجمتين تبرقان فيها، وخطر له أن بمقدوره أن يتملى من رؤية النجوم وهو في سطح المنزل. سيكون الجو لطيفاً آنذاك، ولعل القمر سيبزغ أيضاً. ومن يدري ماذا يخبئ له منتصف الليل.

وكان يمشي بتثاقل، ويحاول أن يعرف سر فرحته بمنتصف الليل.

بغداد في ٢٤ تشرين أول ١٩٥٦

١٨ حزيران ١٩٥٧

سلسلة «الكتاب للجميع» صدر منها

إسم الكتاب	إسم المؤلف
حي بن يقظان	لابن سينا وابن طفيل والسهروردي
غابة الحق	فرنسيس فتح الله مراش
الإسلام بين العلم والمدنية	الإمام محمد عبده
الأمير الصغير	انطوان دي سانت اكسوبري
طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
مغامرات مونشهاوزن	رودلف ارك راسب
أطفال غسان كنفاني	غسان كنفاني
كليلة ودمنة	الفيلسوف الهندي بيدبا
طوق الحمامة	ابن حزم الأندلسي
تخليص الإبريز في تخليص باريز	رفاعة رافع الطهطاوي
بطل من هذا الزمان	ميخائيل ليرمانتوف
الدين والعلم والمال	فرح أنطوان
غرائب المكتوبجي	سليم سركيس
الأجنحة المتكسرة	جبران خليل جبران
حكاية إيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
حول العالم في ثمانين يوماً	جول ڤيرن
رحلات جيلڤير	جوناثان سويفت
مذكرات هدى شعراوي	هدى شعراوي
البخلاء للجاحظ	الجاحظ
روائع في الشعر والمسرح	رابندرانات طاغور
صندوق الدنيا	إبراهيم عبد القادر المازني
كل الأسماء	جوزيه ساراماغو
مذكرات دجاجة	الدكتور إسحاق موسى الحسيني
حياتي	أحمد أمين
قنديل أم هاشم	يحيى حقي
مذكرات الأميرة جويدان	الأميرة جويدان
إبراهيم الكاتب	إبراهيم عبد القادر المازني
بغداد مدينة السلام	طه الراوي
الحب الأول	إيڤان ترجنيف
أرض البشر	أنطوان دي سانت اكسوبري
الملايين الأربعة	أو. هنري

إسم الكتاب	إسم المؤلف
في الحب والحب العذري	الدكتور صادق جلال العظم
رحلة ابن جبير	تقديم الدكتور حسين نصار
صمت البحر	ڤيركور
التذكار	أرسكين كولدويل
على باب سجن أبي العلاء	معروف الرصافي
قصص وحكايات خرافية	هانس كريستيان أندرسن
هرمن ودرونيه	يوهان ولفجانج فون جوته
خزين اللامرئيات	فؤاد التكرلي
دون كيخوته جـ١	ثربانتس
دون كيخوته جـ٢	ثربانتس
المواقف والمخاطبات	النفري (محمد عبد الجبار بن الحسن)
أمسيات قرب قرية ديكانكا	نيوكولاي جوجول
إسرار الموسيقى	علي الشوك
الخنفسة الذهبية	إدجار الن بو
إخطية	إميل حبيبي
فن التمثيل عند العرب	محمد حسين الأعرجي
شبح كانترڤيل	أوسكار وايلد
أغاني الغجر	هانزيكون فويكت
العودة إلى الأهوار	كافن يونغ
كناسة الدكان	يحيى حقي
في تجربة الكتابة	س. ر. مارتين
الإسكافية العجيبة	فيدريكو غارسيا لوركا
دراسات في التاريخ	أ. ج. هوبزبوم
عن الرجال والبنادق	غسان كنفاني
وصايا الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين	تقديم غسان تويني
الفرح ليس مهنتي	محمد الماغوط
الضائع من معجم الأدباء	د. مصطفى جواد
العالم الطريف	أولدس هكسلي
طونيو كروجر	توماس مان
صوت أبي العلاء	طه حسين
أخبار الحمقى والمغفلين	أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

إسم الكتاب	إسم المؤلف
حبر على ورق	مارون عبود
والدة	فرانسوا مورياك
ماجلان قاهر البحار	ستيفان زفايج
أرض البرتقال الحزين	غسان كنفاني
حديث الأشجار	فؤاد التكرلي
مدرسة الزوجات	أندريه جيد
د. هيغل ومستر هايد	روبرت لويس ستفنسن
عاصفة الأوراق	غابرييل غارسيا ماركيز
المعذبون في الأرض	طه حسين
أمين الريحاني	مارون عبود
الجواب المسحور	غائب طعمة فرمان
الراهب الثائر	سافونا رولا
رحلة إلى بابل القديمة	د. إيفلين كلينيكل - براندت
ميخائيل نعيمة	مسرحية ليعقوب الشدراوي
الأدب الفارسي القديم	باول هورن
الأنساب المختارة (ج - ١)	جيته
الأنساب المختارة (ج - ٢)	جيته
القاهرة	ديزموند ستيوارت
زينب	محمد حسين هيكل
كنز البسطاء	موريس ماترلنك
خمسون فيلماً من كلاسيكيات السينما المصرية (ج - ١)	علي أبو شادي
خمسون فيلماً من كلاسيكيات السينما المصرية (ج - ٢)	علي أبو شادي
خمسون فيلماً من كلاسيكيات السينما المصرية (ج - ٣)	علي أبو شادي
مذكرات نجيب الريحاني	بقلم نجيب الريحاني
رودين (ج - ١)	إيفان تورغينيف
رودين (ج - ٢)	إيفان تورغينيف
حرير	أليساندرو باريكو
ستندال	علي الشوك
القضاء العرفي عند العرب	باسم عبد الحميد حمودي
قصائد مختارة	سلفاتور كواسيمودو
المعجم العربي الجديد المقدمة	هادي العلوي (ج - ١)
المعجم العربي الجديد المقدمة	هادي العلوي (ج - ١)

إسم الكتاب	إسم المؤلف
حواء الملهمة	محمد علي أمين الحوماني
تصوّف (منقذو الآلهة)	نيكوس كزنتزاكيس
إبراهيم الثاني	إبراهيم عبد القادر المازني
ريح الشرق وريح الغرب	بيرل باك
البلطة	ميخائيل سادوفيانو
أم العواجز	يحيى حقي
الباب الضيق	أندريه جيد
الشرق والغرب	الدكتور أحمد أمين
غرائب المكتوبجي	سليم سركيس
دون جوان	د. لطفي عبد البديع
الإسلام وأصول الحكم	علي عبد الرازق
زبائن إيفرونوس	جورج سيمنون
السيدة دالاواي	فرجينيا وولف
بين الحرف والدم	كارلوس كاتانيا (ج - ١)
بين الحرف والدم	كارلوس كاتانيا (ج - ٢)
وحده الصوت يبقى	فروغ فرخ زاد
أدباء القرن العشرين	محمد عبده
غاندي - الثائر القديس	لويس فيشر
أديب	طه حسين
صيف كلنكسر الأخير	هيرمان هيسه
طهران بلا سماء	أمير حسن جهل تن
الصعلكة والفتوّة في الاسلام	أحمد أمين
٢٤ ساعة في حياة إمرأة	ستيفان زفايج
بيرانديللو	محمد أمين حسونة
من تونس إلى القيروان	غي دو موباسان
بوشكين (أمير شعراء روسيا)	نجاتي صدقي
بايرون	أمينة السعيد
«سارق الدراجة»	لويجي بارتوليني
الوجه المسروق	لطيفة
عودة أوليس (أوديسة)	ديريك والكوت
قصائد مختارة	غابرييلا ميسترال
اللنبي في مصر	بقلم المارشال ويفل - ترجمة / علي ابراهيم الأقطش ومصطفى كامل فودة
الرواية العربية الشاهدة	عصام محفوظ
وكان مساء...	هاينريش بُل
الربيع الروماني للسيدة ستون	تينيسي وليامز
سحب عابرة	كاميلو خوسيه ثيلا

إسم الكتاب	إسم المؤلف
مستشرقو المدرسة الإيطالية	كارولين جولر
الموت والعذراء	أرييل دورفمان
نداء البداءة	جاك لندن

الكتاب للجميع

سلسلة كتب شهرية
توزع مجاناً
مع الصحف التالية

السفير	لبنان
المدى	العراق
الإتحاد	العراق
البيان	الإمارات
القاهرة	مصر
القبس	الكويت

المدى

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-835-X
9 782843 058356